عبد الباقـي يوسـف

الآخرون أيضـاً

روايـــــــة

صدرت هذه الرواية عن منظمة كُتاب بلا حدود - كركوك 2012

مع إيقاع وهج السنوات الأولى لانفتاح مداركه على إشراقة الحياة ، لازمه إحساسٌ عميقٌ بأنه يعيش في ظلمة قاع بئر .
يسعى للتغلّب على هذا الإحساس ، أو للتخفيف من حِدّة امتداده في مساحات الشعور ، وهو ينطلق جارياً في الشوارع ، في الأزقة ، في الحدائق .
ينتصب قائماً على علو جسر ، ويقذف بجسده - الذي يشعر بأنه منفصل عنه - في رحابة النهر ، يعوم مسافات طويلة حتى تخور قواه ، و يلوذ بأقرب ضفة .
يستلقي على ظهره شارعاً يدَيه وكأنه يحضن الهواء الذي يلفح الرطوبة على مسامات جسده .
نصف ساعة تمضي على استرخائه ، ثم ينهض ثانية ، تهرول به قدماه بين الأشجار مبلل الثياب ، أشعث الشعر ، محتقن الملامح كأنه مُطارَدٌ من فكّي ذئبٍ مسعورٍ على وشك التهامه في وعورة رمال صحراء .
يصل إلى البيت متقطّع الأنفاس، يدلف حجرته ، يستلقي على السرير ، تُقدّم له أخته (حبيبة روحي) كأسا من الزهورات ، يغلق الباب على نفسه ، ثم يمد

يده إلى آلة التسجيل لتتناهى موسيقى هادئة تعين الزهورات على تهدئة أعصابه .

يمضي الوقت وهو في حالةٍ تامةٍ من الاسترخاء الجسدي والروحي ، يُخيّم الليل .

يجلس في السرير قليلاً ، ثم ينهض ، يرى أمه غارقة في النوم إلى جانب أخته.

يخرج مُجَدّداً من قفص الحيطان التي تبدو تُحاصره ، يمشي على رؤوس أصابع قدمَيه بحذر لصٍ بعد منتصف الليل ، يتسلّق الجدران حتى يعتلي السطح ، يتقافز كشبحٍ من حائط إلى حائط ، من سقف إلى سقف ، ويعود منهكاً إلى الفراش ليتجَدّد على روحه جلد سياط هذا الإحساس الواخز بأنه هوى إلى ظلمة قاع بئر .

عندما عَتَبَ العشرين من العمر ، مضت خمسُ سنواتٍ على حدّ ة صراعه مع هذه الحالة الفتـّاكة التي باتت تفسد عليه متعة الولوج في أي باب من أبواب الحياة ، تفسد عليه أحياناً حتى متعة المشي في درب ، أو الاستمتاع بسكينة نوم عميق .

*　　　*　　　*

لم يكن (أسامْ) يعلم بالوقت ، وهو متكوّر تحت لحاف سميك مصنوع من صوف الأغنام في زمهرير بدء شهر كانون الثاني ، لولا أن صوت المؤذن تناهى إلى سمعه مؤذناً بتلاشي ليل جليدي ، وتشكّل معالم نهار صقيعي جديد في رحابة خضرة هذه الأرض التي فتح عينيه على تربتها .
عندها ومضت فكرةٌ كلمع برقٍ خاطفٍ في رأسه .
قلّب جسده إلى الجهة اليمنى مركّزاً على جدّية الفكرة التي ومضت له

- هل ستستطيع يا أسـام ؟
- سـأحاول ، ربما تتقدم بي خطواتي مع تحمّل ما ينجم عن ذلك من معاناة
- وأمـك ، أختك (حبيبة روحي) اللتان لا أحد لهما في ملء العالم كله غيرك

انهمرت دموع غزيرة من عينيه ، علتْ غصة جافة إلى حنجرته وهو يتخيّل أنه يغادرهما .
يغادر أقرب كائنين إلى شغاف قلبه ، يبتعد عن أحب بقعة أرض إلى نفسه .
البيت الأول الذي شهد صرختـه الأولـى .
شهـد دمعتـه الأولـى .
شهـد بسمتـه الأولـــى .
شهد خطواته المتلكئـة الأولـى .
البيت الأول الذي رسم رسوماً تلقائية علـى حيطانـه .

المرأة الأولـى التي غمرته بفيض حنان الأمومة ، التي حملته وهناً على وهـن ، وهي تغمره بفيض معاني ودلالات كلمة : ابنـي .
المرأة الأولـى التي أحسّ بحمايتها له ، وهو يستنجد بها من حشرة زاحفة ، أو من وقع صوت مباغت ، هاتفا ملء فمه : أمـي .
المرأة الأولـى التي منحته كل لحظة من لحظات حياتها ، وهي تبتسم .

يودع (حبيبة روحي) ، أخته الوحيدة في هذا العالم ، الكائنة التي تُفعّل في نفسه مشاعر الأخوة ، التي تجعله يمتلئ شعوراً بأنه ليس وحيدا ، وأن العالم ليس موحشاً ، تمنحه إحساساً بأنه كائن اجتماعي ، وليس مبتورا من شجرة ، وهي الوحيدة التي تملك أن تجعله خالا .

كيف له أن يودّع عشرين سنة ثرية من إيقاع تفاعلات الحياة في ثنايا هذا البيت الذي يتفوّح بروائح البخور ، والحرمل ، والزنجبيل ، وحبة البركة ، واليانسون ، والزعفران ، والشمّر ، والحناء ، وأشكال النباتات ، وبعض كتب التداوي بالأعشاب ، والطب النبوي .

في الرابعة فجرا تنهض أمه من النوم ، تتوضأ ، وترتدي ثيابها المخصصة للصلاة التي تغسلها كل خمسة أيام في الشتاء ، وكل ثلاثة أيام في الصيف .
تصلي ركعتَـي الفجر بتؤدة ، وتعقبهما ببعض الصلوات النوافل ، ثم تستقر جالسة على سجادة الصلاة ، تقرأ جزءا من القرآن الكريم ، تلبث نصف ساعة رافعة كَفّيها تسأل الله أن يفتح أبواب الخير أمام ابنها

(أسام) ، وابنتها (حبيبة روحي) ، ويقيهما عيون الحسّاد ، و كل مَن يريد لهما أذى .
بعد ذلك تمسح فيض الدموع الذي ينهمر من عينيها ، وتخرج إلى غرفة عملها ، تقرأ شيئاً من كتب التراث التي تخص التداوي بالأعشاب ، ثم تعود إلى المطبخ ، تباشر في إحضار الفطور ، فتنهض عندذاك حبيبة روحي ، تطبع قبلة على ظاهر كفها ، وتتلقى من فمها المبتسم قبلة على خدها قائلة : يرزقك الله بابن الحلال يا بنتي .
تبتسم بشيء من حياء ، و تباشر معها تجهيز الفطور الذي يتكوّن على الأغلب من بيض بلدي مسلوق ، وعسل ، وزيتون يغص بزيته ، وقشدة لبن البقر ، وخبز تنور ساخن ، وشاي .

يفتح أسام عينيه على أصوات الصحون ، يلج المطبخ ، وقبل أي شيء يروح ، ويطبع قبلة على ظاهركفها ، فتبتسم كعادتها ،وتطبع قبلة الصباح على خده قائلة : وفقك الله بابني .
يخرج على الفور كالمعتاد متجهاً إلى الدكان ، يتناول إناء اللبن ، ويعرج إلى التنور المجاور ، يأخذ حاجته من الخبز عائداً إلى مائدة الفطور التي تنتظر حضوره .

في الثامنة صباحا تفتح (حبيبة روحي) باب الحوش المؤلف من مساحة أربعمائة متر مربع مزروع في قسم منه بحشيش صناعي ، تجاوره قطعة مزروعة بالياسمين ، وفي إحدى الزوايا يمكن للداخل أن يرى بعض الأرانب الصغيرة والكبيرة تتقافز داخل شبك على شكل قفص معدني .

أمّا إلى جانبَـي باب الدخول الرئيسي ، فيستقر دنّان ، أحدهما مزروعٌ بقرنفلٍ كثيف ، والآخر مثله بشقائق النعمان .
على حافتـَي الممشى المكسو بالسيراميك ، المؤدّي إلى غرفة العمل توجد علب صغيرة مزروعة بأنواع الزهور ، ويمكن للداخل أن يرى طيور البط ، والوز تعوم في بركة ماء ، تتوسطها نافورة قرب دالية عنب مزركشة بأضواء خافتة صغيرة الحجم تلبث مشتعلة ليلاً نهارا .
هذه الغرفة الواسعة هي عبارة عن غرفتين داخليتين شبيهة بعيادات الأطباء التي تتخذها السيّدة لعملها اليومي ، ويحدّها السكن المؤلف من ثلاث غرف ، وصالون ، ومرافق على هيئة شقة داخلية لاأحد يقربها من المرضى الذين يتلقون العلاج على يديها .

منذ تلك الساعة الصباحية تنهال النسوة على الأغلب ، مع حالات نادرة من رجال مهابيل ، أو مساطيل ، أو موسوسين ، أو مجاذيب ، أو حمقى من كافة أرجاء المدينة ، والمناطق ، والأرياف ، وأحيانا من مدن أخرى على هذا البيت .
تستقبلهم أخته (حبيبة روحي) التي تصغره بخمس سنوات ، وقصة هذا الاسم المركـّب تعود إلى أمها التي أصرّت عليه .
كانت (حبيبة روحي) في شهرها السادس من الحمل عندما قضى أبوها (مدني) في الحمام نتيجة تكاثف البخار .
كان شخصاً شديد الحياء في نحو الخمسين من عمره ، يكسب لقمة عيشه بالعمل اليومي كعامل في محل لبيع الزهور وسط المدينة .

كان سعيداً بعمله لأنه كل يوم يعود إلى بيته مساء بالدرّاجة الهوائية ، و امرأته (تاج) إذ ذاك سعيدة في بيتها لاتقوم بأي عمل سوى التفرغ لتربية ابنها الوحيد أسام .

أحياناً تراودها أفكار كي تستفيد من الخبرة التي أخذتها عن أبيها ، حيث كانت ذراعه الأيمن لمدة عشرين سنة في تقديم الطب النبوي ، والتداوي بالأعشاب للمرضى ، وهو الشيخ الطاعن في السن الذي يتمتع بشعبية واسعة لدى مختلف شرائح الناس .

عندما جاء (مدني) يطلبها للزواج ، وكان ذلك عن طريق خالته (سنا) التي كانت تتردد إلى الشيخ ليعالجها من داء الفالج ، وذات مرة حكت لها عن ابن أختها / مدني / الذي يبلغ من العمر أربعين
سنة .
قالت لها بأنه شخص ودود ، ويرغب في إتمام دينه ، فإن رغبت في رؤيته ، فسوف تصطحبه في المرة القادمة حتى تراه ، ويراها .
عندما صمتت / تاج / أدركت الخالة بأنها لاتمانع من رؤيته ، فأخبرت ابن أختها الذي حضر معها يوم الأربعاء ، بعد سبعة أيام من أخذ الموافقة غير المباشرة .
حين رأته ، لم تقتنع بفكرة رفضه ، وبذات الوقت لم تعلن موافقتها ، وهو أيضا أخبر خالته بعدم رفضه لها بشكل مبدئي .

بعد شهرين من ذاك اللقاء جاءت خالته السيدة (سنا) ، وطلبت من تاج أن تعلن عن قرارها في هذا الشأن .

نظرت تاج إلى عينيها ، وبدت مترددة في قول تلك الكلمة الجازمة ، ورأت بينها وبين نفسها أن تتريث بعض الوقت لعلها تستقر على موقف يمكن من خلاله أن تقول تلك الكلمة .

بعد قليل من انتظار الخالة لجوابها ، طلبت أن تمهلها بعض الوقت لأنها ترى أن ذلك سيمنحها فرصة أن تقول كلمتها بثقة أكثر مما هي الآن .

كانت تميل إلى هذا الشاب الوقور الذي لم يسمح لنفسه أن يرفع سماعة الهاتف ليتصل بها ، بل حتى عندما جلسا لمدة نصف ساعة بحضور الخالة ، لم يتحدث إلا عندما كانت تلمح له للحديث ، وهي التي أبلغته بأنها في الثلاثين من عمرها دون أن يسألها ذلك ، وقالت إن خالته أخبرتها أنه في الأربعين من عمره ، فأكد لها هذه المعلومة هازا رأسه دون أن يفه بكلمة .

بمقابل ذلك ، فقد مال إليها (مدني) بسبب ماتتمتع به من رزانة وجدّية ، ورأى أنه سوف يكون محظوظا إذا رزقه الله بها .

بعد نحو شهر من ذلك أرسلت تاج إلى خالته إحدى النساء تدعوها للزيارة .

لم تخبر الخالة سنا ابن أختها عن ذلك حتى حضرت ، وسمعت تاجا تقول : إن كان ابن أختك ياعمة ما يزال يريدني ، اخبريه أنه يمكن أن يأتي بأهله للتحدث إلى أبي .

عندئذ لم يتردد مدني من الاتصال بها ، وأخذ موافقتها للحديث معا لمدة عشرة أيام من خلال الهاتف .

أحست بشيء من الحرج من مطلبه لأنها أبدت موافقتها النهائية عليه ، وقد حدث ذلك بعد أن بلغتها موافقته النهائية ، بيد أنها مرّرت المطلب ، ويسّرت له الحديث حتى علمت بأنه لم يكن يطلب ذلك لأجل تثبيت موافقته ، بل طلب ذلك حتى يتحاورا في بعض تفاصيل الحياة الزوجية . عندئذ ازدادت قناعة بعدم التعجل في الأجوبة ، وأن التأني أسلم من العجلة

خلال تلك المحادثات علمت أنه لا يحبب فكرة عملها بالخبرة التي اكتسبتها عن أبيها .

بعد خمس سنوات من الزواج ، ولد (أُسام) الذي جعلها تستقر في زواجها بشكل أعمق مما كانت عليه .

راودها إحساس آنذاك بأنها غدت مسؤولة عن زوج ، وبيت ، وابن ، وأن هذه الأسرة الصغيرة سوف تكبر مع مرور السنوات .

عندما احتفلت بعيد ميلاد أسام الأول ، ألمحت لزوجها بأنها يمكن أن تغتنم هذه الخبرة ، فتفيد بها الناس ، وتتمكن من تقديم أي عون للأسرة التي سوف تحتاج إلى نفقات إضافية ، خاصة وأن أباها بدا يعاني عطب الشيخوخة ، وأن أختها (سمرقند) التي هي من زوجته الثانية ، ماتزال في ربيعها الخامس عشر ، إضافة إلى كونها خرساء ، لا تستطيع تقديم المساعدة الكافية لأبيها .

قالت بأن النساء سوف يأتين إليها من كل أرجاء المدينة لأنهن على دراية جيدة بخبرتها ، بيد أنه عاد ، وأبى ذلك قائلا إنه لايريد سوى تفرّغها لتربية أسام ، ولِما يترتب عليها من واجبات منزلية ، وعندما تنجح في هذه المهمة ، فإنها ستكون قد أدت رسالتها في الحياة بشكل ممتاز .

أما عندما تنجح في عملها ، ولا تصيب في مهمة البيت والأسرة ، فإنها تكون قد أخفقت في أداء رسالتها في الحياة مهما جلبت من مال ، ومهما كان مبلغ نجاحها في العمل .

أما إذا نظرت بأنها سوف تحقق نجاحا في العمل ، إلى جانب نجاح مهمة البيت ، فإنها تكلّف نفسها ما يفوق طاقتها .

ثم يبدأ شارحا لها بأن المرأة إذا أرادت أن تنجح في القيام بواجبها تجاه أسرتها ، فإنها عندذاك تحتاج إلى بذل كل مالديها من طاقة ، ووقت ، واندفاع ، وصبر ، وحتى إذا بلغت ذلك ، فإنها ستحتاج إلى مَنْ يساعدها ، فتستعين بالمقرّبات لها من أجل إعانتها للقيام ببعض الأعمال المنزلية .

ثم يبدي لها وجهة نظره بأن العناية بطفل واحد تحتاج إلى نصف وقتها ، أما النصف الثاني ، فإنه لايكفي للقيام بما يترتب عليها من عمل منزلي ، وقيام بواجبات اجتماعية ، والحصول على وقت كاف للخلود إلى النوم .

كان يستفيض لها شارحاً أن الرجل إذا تحمّل مسؤولية المرأة إلى جانب قيامه بوظيفته ، فإن ذلك يأتي على حساب جودة ما ينتج من عمل ، ولن يكون بوسعه أن يتساوى مع ذاك المتفرّغ لوظيفته فحسب .

إنه يتمتع بمالديه من فائض وقت لممارسة أي هواية ، أو رغبة ، قد يمضي ساعتين متصلتين ، وهو يمازح طفله الصغير ، قد يمضي ثلاث ساعات ، وهو يداعب زوجته ، قد يسهر مع رفاقه أربع ساعات متصلة ، قد يسافر ، بيد أنه عندما يقع على ساعات عمله ، فإنه ينتج بشكل جيد ومركّز لأن لديه متسعاً من فراغ ، وليس متسعاً من عمل إضافي آخر .

يضع كفه بين ثنايا شعرها برفق ويدندن : الرجل يا تاجي لايحالفه النجاح في أن يكون رجلاً وامرأة في آن واحد ، مثلما المرأة التي لايحالفها النجاح في أن تكون امرأة ورجلاً في آن واحد .

هذا لايعني أن الرجل لايضطر أحيانا لأن يقوم بمهمة المرأة ، كما أن المرأة تضطر أحيانا للقيام بمهمة الرجل ، وهذا يحل الكثير من المعوقات التي تقف عائقا في استمرار الحياة الزوجية .

فلو تعرّض لمرض يعيقه عن عمله ، سيفضّل أن تعمل امرأته على الإذعان لفكرة التسول ، أو العيش على صدقات الآخرين ، أو حتى على فضلاتهم ، وستكون صاحبة فضل عليه لأنها قبلت ضريبة قيامها بوظيفته أيضا .

تصغي إليه ، وهي تهز رأسها مقتنعة بما يقول ، وتاركة القرار النهائي له لأنها تحرص كل الحرص ليمارس كل فحولة الرجولة ، ويكون سيداً حقيقيا في بيته .

في النهاية يطبطب على كتفها قائلا أنه معني بتأمين مستلزمات البيت من الخارج ، وهي معنية بترتيب قوائم البيت من الداخل .

مضيفا بأن هذا هو جوهر الشراكة الحقيقية بين رجل وامرأة رغبا في بناء أسرة قويمة على دعائم راسخة .

لبثت السيدة (تاج) أو كما يقول لها البعض (أم أسام) على ما هي عليه مطيعة بعلها دون أن تعود للتفكير في هذا العمل .

عشر سنوات دام ذاك الزواج القصير بالنسبة إليها ، عندذاك كانت الفجيعة الكبرى الأولى التي زلزلت حياتها ، وجعلتها تشعر بفداحة الخسارة الحقيقية للإنسان الأنيس ، والرفيق ، والشريك .

عاهدت نفسها بأنها سوف تلبث لتربية أسام ، وما في بطنها ، ولن تبرح البيت الذي دخلته زوجة ، وغدت فيه أمّا .
يومها تعرضت لانهيار في أعصابها ، وارتفع بها الضغط ، وبعد شهرين أصابها / الزلال / ، فغدت حياتها في خطر تحت استخدام الأدوية الخافضة للضغط حتى اضطرت لإجراء عملية قيصرية عاجلة لإنقاذ حياتها , وحياة طفلتها .

عندما فتحت / تاج / عينيها بعد زوال أثر البنج ، ووقعت حدقتاها على المولودة النائمة إلى جانب سريرها في المشفى ، طفرت دموع من طرفَي عينيها إلى أرنبة أنفها ، وغدت تتمتم في سرها متخيلة بأنها رائحة من أبيها :
(حبيبة روحي) .
إنها ثمرة البطن الثاني والأخير ، الطفلة الثانية الخاتمة .
أحست في تلك الهنيهات - وهي تتبرّك بالنظر إلى فلقتَي وجهها الأحمر المستدير كفلقتَي تفاحة حمراء - بعذوبة الاسم ، وخطر لها لأول وهلة أن تطلقه عليها .
حتى إنها عندما راحت تسجلها في أمانة السجل المدني ، اقترح عليها الموظف أن تكتفي بـ (حبيبة) ، ثم تدللها كما تشاء في البيت .
لكنها أصرّت على الاسم ، وهي تشدّد على حروفه المركّبة :
(ح.. بـ .. يـ .. بـ .. ة .. رو .. حـــــــي) .

كانت تلفظ الحروف ، وهي تتنسم منها حلاوة الشهد ، ولم تكن تتخيّل أي اسم بديل له .

تهمس ناظرة إلى وجهها الطفولي : حبيبة .. لايكفي .
عليها أن تكون (حبيبة روحي) .
إنها ليست أقل من هذه المرتبة الروحية بالنسبة إلي .

عندما ولد / أســام / كان أمر الاسم بيد مدني الذي أطلقه عليه في اليوم الثالث لولادته قائلا : (أسام) ياتاج .. هذا هو اسم ابننا .
قالـت : ولِمَ لايكون أسامـة ؟
هتف مبتسما : حتـى يكون أكثر رجولـة من أسامـة .

الآن فقط ، وهي تسترجع وقائع ذاك الحديث تدرك كم أن الإنسان كائن رقيق ، لا يفوته شيء ، إنه يخبئ كل واقعة في ذاكرته .
هل تركيب (روحي) الآن يضفي مسحة أنوثة زائدة على (حبيبة) حتى يكون الاسم أكثر أنوثة كناية باسم أخيها الأكثر رجولة كما قال مدني ؟ !

*　　　*　　　*

بقيت تاج تربي ابنتها إلى جانب ابنها من راتبٍ شهريٍ يرسله لها أبوها دون أن يخطر ببالها القيام بأي عمل .
عندما بلغت حبيبة روحي ربيعها الرابع توفي جدها ، وانقطع الراتب الذي كان يصل البيت شهريا .
لبثت (أم اليتيمين) - كما أصبح يُشاع عنها في بعض أوساط الجوار - سنة وثلاثة شهور تعيش بتقشف مستعينة ببيع مالديها من مصاغ ، وحتى بعض السلع المنزلية التي أمكنها الاستغناء عنها .
بعد ذلك رأت نفسها تحت واقعٍ فُرض نفسه عليها ، فقد بدأت النسوة يزرنها بكثافةٍ حتى تصف لهن العلاج ، ورويداً رويدا غدا البيت يتحوّل إلى مصحّةٍ لأولئك المرضى الذين يعقدون كل آمالهم على التداوي بالطب النبوي ، والأعشاب .
عندئذ نظرت تاج إلى الأمر بجدية ، وأعلنت تحت ضغط الحاجة ، والمعيشة الضنك ، أنها سوف تقوم مقام أبيها في هذا العمل قائلة في نفسها بأن

الضرورات التي تبيح ماحظر الله ، فإنها تبيح ماحظر الإنسان أيضا . عندئذ صامت ثلاثة أيام تكفيرا ًعن القرار الذي اتخذته بعدم العمل بتلك الخبرة .
نظرت إلى الأمر نظرة جادة ، وأخذت تكثف قراءاتها ، وتوسع معلوماتها مستعينة بكتب أخرى اقتنتها إضافة لتلك الكتب التي جلبتها من بيت أبيها .
أرادت أن تقدم خدمة حقيقية للمرضى الذين يتردّدون إليها ، وكان أسام إذ ذاك يُقدّم لها العون عندما يعود من المدرسة ، وفي أيام العطل إلى أن كبرت أخته كما تُردّد أمه - في غفلة منها - لتحل محله في استقبال الزوار .

تستقبل بوجهها البشوش النسوة ، وكذلك الذين يأتون معهن من رجال لتلقي العلاج على يدَي (السيدة) التي لم يعد أحد يناديها باسمها بعد ذيوع شهرتها ، وازدياد شعبيتها في الأوساط الشعبية على الأغلب .
إنها السيدة التي يرى الزوّار بأن الله عوضهم بها عن الشيخ (دقوري) الذي عاش مئة وعشرين سنة ، أمضى قرناً ، وهو يقدم خدماته للناس ، وقد ورثت عنه الخبرة حتى تعالج العقم ، وإصابة العين ، والوسواس ، والفِصام ، والجذاب ، ومتابعة أحوال المواليد الجدد بتوجيه الإرشاد للأمهات .

تشرف حبيبة روحي على تنظيم الدور، تُدخل مَن يحتاج إلى الدخول ، وتكتفي بالدخول نيابة عن بعض المراجِعات بعد أن تكون قد علمت بما استجد من أحوالهن .
تلج إلى أمها ، وتخرج بتوجيهات تمليها على المريضة .

تغص غرفة الانتظار بعطور النساء ، ونحيب الأطفال ، وقهقهات بعض المهوّسات ، ولايخلو الأمر بين آن وآن من مجيء صبية ، أو رجال مهابيل ، يعتقد أهلهم أن السيدة يمكن أن تقدم لهم
شيئاً مجدياً ، فيشاركهم أسام الجلوس تحت ظلال دالية العنب جوار النافورة برفقة نساء طاعنات في السن يرغبن في التدخين واحتساء الشاي ، وسرد تفاصيل حياتهن الشخصية .
أما الذين يعانون اضطراباً نفسياً ، أو عصبياً ، أو فصاماً في الشخصية ، فإنه يمتنع من تقديم الشاي لهم بناء على إرشادات أمه ، ويستبدل ذلك بالشاي الأخضر، أو اليانسون ، أو المليسة ، أو البابونج .

هذا العمل الذي يستهلك أوقات الثلاثة الذين يعيشون في هذا البيت ، يجعلهم يستقبلون الوافدين برحابة صدر لأنه يوفر لهم معيشة رغيدة ، ويجعلهم يرفلون في النعمة لأن كل قادم بالنسبة إليهم هو مصدر رزق جديد .
إضافة لذلك ، أحيانا تأتي الخراف ، والأقمشة ، وأطباق العسل ، والبيض البلدي ، وديوك الحبش ، حتى بعض الأواني المنزلية ، ويكون العطاء مجزيا بعد أن تلد المرأة مولودا ذكرا ، فتأتي به إلى السيدة بعد سبعة أيام من ولادته حتى تقرأ عليه شيئا من الذِكر ، وتصنع له
حجاباً ،
وأحياناً تختار له اسماً صالحاً ، وتوصيها أن تخفي مولودها ما أمكن عن عيون الناس الذين يأتون للمباركة إلى أن يتجاوز أربعين يوماً ، وتأتي به مرة أخرى لتذيب لها وللمولود الرصاص وتخرجهما من الأربعين .

ولايفوتها أن تنبّـه الأم بأن المولود يمكن أن يُصاب بالعين حتى من أبوَيه ، أو المقرّبين إليه ، وذلك من فرط فيض المحبة ، وطول النظر في صفحة وجهه ، لأن المولود قد لايحتمل فيض هذه المحبة ، وغمر هذه النظرات .
تمضي السنوات وهي تعيش مع ولديها في بحبوحة ، ولاتنسى أن ترسل مع أسام بعض المونة لخالته سمرقند المتزوجة في حي مجاور ، أو عندما تزورها أختها ، فتغدق عليها مبلغا من المال .
تبدأ السيدة في تطوير عملها مستعينة بقراءاتها المتعددة ، فتقوم بصناعة بعض الأدوية المؤلفة من خلطات الأعشاب ، وتبيعها في عبوات إلى الذين يطلبون منها ذلك .

ترعرع أسام على هذه الأجواء المكتظة بالبخور ، وتحفظ ذاكرته هذه الوقائع التي ليس بوسعه نسيانها .
يحلّـق في فضاء ذكريات عزيزة لديه ، وهو يتخيل هامـة أمه تصف العلاج لمرضاها ، ويستعيد نبرات صوتها في ذاك البيت الذي نما فيه يوماً تلو يوم .
تصف الدواء بدقة فائقة ، وبثقة طبيبة متمرسة في مهنتها ، والمريض أو المريضة في حالة إصغاء وانتباه شديدين .

*　　　*　　　*

في هذه الأجواء رأى أسام أنه يفقد خصوصيته كشخص مستقل في الحياة ، وأنه لايجد وقتاً كافياً ليصنع شيئاً يتميّز به ، أو يترك بصمة في الحياة ، وفي أفضل الأحوال سوف يتزوج ، ويقيم في هذا البيت ، ينجب أولاداً يستمرون في ذات الأجواء ، وقد يتوارثون هذه المهنة في أفضل الأحوال .
خمس سنوات يعاني آلاما روحية دون أن يجسر على كشف لحظة معاناة واحدة لأمه ، أو لغيرها .
كيف يعبّر عمّا يشعر به ، خاصة وأنه سمع كلاماً لم يرغب في سماعه من أمه ، ومن أخته ، ومن بعض المقرّبين .
كيف يقول بأنه عندما ينظر إلى أمه ، يسمع حديث نفسها ، هذا الحديث الذي يتحول في سمعه إلى كلمات فصيحة .
ثم هل ستصدقه أمه ، أم تظن بأن ابنها في هذه الطقوس أصابه مس .
منذ يومين جلبتْ امرأة ابنتها إلى السيدة حتى تعالجها ، ألقى نظرة إلى الفتاة التي بادلته النظر ، لكنه سرعان ما غض بصره حتى لايسمع بقية ما أخذت تتحدث به في نفسها .
عندما يكون جالساً مع أمه وأخته يغض بصره حتى يتجنب سماع عبارة لايرغب في سماعها حتى أن أمه بدأت تلاحظ عليه هذا السلوك ، وتؤاخذه عليه قائلة : ما بك يا أسام ، كأنك شخص غريب عنا ، عندما تتحدث مع أمك ، انظر إليها احتراماً لحديثها معك ، لايجوز يا بني أن أتحدث معك وأنت

تنظر إلى الأرض ، أو إلى السقف ، الحوار على هذا النحو يكون حوار طرشان ، وأيضا أختك تعاتبك على سلوكك هذا .
هيا انظر إلى أختك ، وابتسم لها .
يلتفت ناظراً إلى أخته ، يبتسم قليلاً ، ثم ما يلبث أن يستدير ما نعاً نفسه من سماع ما شرعتْ تتحدث به الأخت في قرارة نفسها وهي تبتسم .
عندذاك أردك نعمة انقطاع السماع عند غض النظر ، وإلا ما كان بوسعه الاستمرار في هذا البيت شهراً واحدا ، وهو الذي يعتصر ألماً خمس سنوات متواصلة .

قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، لم يكن يشعر بشيء من ذلك . يستعيد كل الوقائع دون أن يذكر شيئاً كهذا .
المرة الأولى التي اكتشف فيها هذه الحاسة كانت عندما يجلس مع أخته في غرفة الانتظار المكتظة بالنسوة .
بغتة تزاحمت العبارات على مسمعه ، كلما نظر إلى وجه ، تناهت إليه كلمات ، يوجّه نظرات سريعة إلى عدة وجوه ، فتتراكم الكلمات المتداخلة على مسمعه ، كلمات موجهة إليه ، بيد أنه يحتقن ولايجيب ، وكيف له أن يجيب ، وهنّ يتحدثن إليه في لحظة واحدة بأحاديث متداخلة .
يغمض عينيه ، فلايسمع غير حديث بعضهن لبعض .
عندئذ أحس بشيء من الخلل في توازنه ، خرج من الغرفة ، واتجه إلى الخارج .
ألقى شخص عليه السلام في الشارع ، أجاب عن سلامه وهو ينظر إليه .

سمع الشخص يقول دون أن تتحرك شفتاه : حرمك الله من الأب يا أسام ، لكنه عوضك بأم تكسب مثل عشرة رجال .
قبل أن يموت الشيخ دقوري ، كنا نقول لها : (أم اليتيمين) الآن بمقدورها أن تعيل عشرين يتيما ، / مصائب قوم عند قوم فوائد / ، لولا موت الشيخ لما كانت السيدة تاج تحلم ببحبوحة في المعيشة كهذه ، ولما حلمتَ يا أسام أن تعيش عيشة رغيدة كهذه . الآن رجل مثلي .....

عندذاك لايعرف كيف أزاح نظره ، وغدا ينظر إلى الأرض متفكراً في الحديث الذي سمعه ، لينقطع عنه الحديث . رفع بصره لتُسترسل الكلمات :
لكنني أخجل .....
أزاح بصره لينقطع الحديث مرة أخرى .
استدار عائداً إلى غرفته ، وقد غدا فريسة لنوبة حمّى شديدة .

في المساء نادته أخته لتناول العشاء ، خرج بتثاقل ، سألته أمه عن سبب غيابه عن حجرة الانتظار خاصة وأن اليوم (جمعة) ولم يكن ذاهبا إلى المدرسة .
تحاشى النظر في وجهها لأول مرة دون أن يجيب .
لم تكرر الأم سؤالها .. تناول العشاء ، وعاد إلى غرفته .
في صبيحة اليوم التالي ، ذهب إلى المدرسة ليتعرف لأول مرة على عالم جديدة لم يكن يخبر شيئا عنه .
عند الاجتماع الصباحي في ساحة المدرسة الضخمة ، ألقى بنظراته إلى وجه المدير ، ثم إلى وجه نائبته ، ثم إلى وجوه الموجهين ، ثم المدرسين ، وهو يصغي لحديث نفس كل وجه .

لدى الانتهاء ، توجه الزملاء نحو الشعبة ، ولبث في أرضه يشعر بحالة دوّار
.
مشى عدة خطوات ، لكنه سقط على الأرض مغميا عليه .
أمضى ثلاثة أيام في استراحة ، وخطرت له لأول مرة فكرة ترك المدرسة ، بيد أنه أجل ذلك حتى حصوله على شهادة (البكالوريا) .
بعد ذلك غدا يتحاشى النظر في تلك المواقف ، تجنبا لأي رد فعل قد يقوم به ، أما عندما يقمع نفسه ، فإنه يتعرض كرة أخرى للإغماء الذي قد لايمضي على خير في مرات قادمة .

عندما حصل على شهادة (البكالوريا) ، لم يتردد في اتخاذ قرار الخروج من البيت قائلا لأمه قولاً جازما : سوف أبحث عن نفسي يا أمي ، أشعر أن نفسي تائهة عني ، ولابد أن أبحث عنها في موضع آخر!
صُدمت أمه بهذا القرار المباغت ، وهو الذي حصل على شهادة (البكالوريا) بعلامات جيدة ، وتُخطط لدخوله الجامعة حتى يصبح مهندسا ًزراعياً ، وتحلم أن تشتري له صيدلية زراعية في قلب المدينة .
لكن القرار أخذ موقعه الثابت ، وليس بوسع أحد زحزحته في نفسه ، إنه يعي ما يقول ، ولا يريد لأي عائق أن يفسد عليه متعتة وآلام بحثه عن نفسه بعيدا عن أجواء البيت .
عندذاك ، وأمام إصراره الشديد ، مدّت إليه أمه حزمة نقود ، بيد أنه رفض ذلك قائلاً بأنه يريد الانطلاق منذ الخطوة الأولى معتمداً على نفسه .

قالت في سرها : / ابني تغير ، لم يعد كما عهدته ، ليخرج من البيت ، ويفجّر هذا اللغم من داخله خير من بقائه هنا على أمل الخروج . إن فشل في تكوين نفسه ، فسوف يعود إلي هادئا مستقرا ، وإن نجح فسيكون ذلك خيراً له ولي . /

نظر إلى عينَـي أمه ، وهو يلتقط حديثها لنفسها مودعة إياه .

استمر الحديث إلى الثالثة صباحا ، عندئذ نهضت داخلة إلى حجرتها .
في الصباح ، وبعد الفراغ من تناول الطعام ، ودّع أسام أمه ، وأخته غائبا للمرة الأولى عن البيت .

دخل سوق المدينة بحثاً عن عمل كخطوة أولى ، يبدأ منها حياته الانتقالية الجديدة حتى وجد ضالته لدى رجل يشتري الصوف ، والسمن ، والجبن ، والقشدة ، والبيض ، وما إلى ذلك من منتجات القرى ، يشتريها من القرويين الذين يصلون مع بزوغ الضوء إلى السوق ، ثم يبيعها لسكان المدينة .
كان العمل شاقا يستغرق كل وقته ، من طلوع الضوء إلى ما بعد العشاء .
عندئذ استأجر بيتاً لايراه إلا عندما يعود من عمله منهكاً ، فينام ليصحو متثاقلاً على رنين منبه الساعة .
يتجه مطلع كل شهر إلى المصرف ليودع فيه ما استطاع أن يدّخره .
إنه يعمل ، ويكتشف ألوان الحياة من خلال الاحتكاك بالناس ، من خلال التعامل المباشر معهم ، ويهمه أن ينجح في مسعاه حتى لا يعود إلى البيت

ذليلاً، وقد أعطى تصوراً لأمه بأنه أخفق في إعالة نفسه ، فكيف سيعيل أسرة .

بعد خمس سنوات متواصلة من هذا العمل الشاق ، وهو يتجنّب ما أمكنه النظر في وجوه الناس حتى لا يُفجع بالمزيد ، استطاع أن يشتري قطعة أرض وسط السوق ، ثم يبنيها شيئا فشيئا ، لتتحوّل بعد ثلاث سنوات أخرى من البناء البطيء إلى متجر كبير يحمل اسمه .

عندئذ أحس بشيء من الاستقرار، وهو يرى المكاسب الجيدة تنهال عليه ، وكذلك تنفتح أمامه أبواب علاقات واسعة مع تجار كبار ، ووجهاء ، وأصحاب نفوذ .

بعد نحو سنتين لم يتردد أسام من شراء بيت وسط المدينة حتى يقيم فيه بدل بيت الأجرة .

* * *

مع شعوره ببعض الانتعاش المادي ، راودت أسام فكرة الانطلاق نحو رحابة العالم حتى تعرف على المجتمعات البشرية ، يرى الآثار ، الأوابد ، يزور الأماكن الشهيرة في العالم خاصة وأنه بلغ الثلاثين دون أن يرى شارعاً خارج مدينته ، وخارج بلاده .

عندئذ وضع مخططاً لحياته يقضي بأخذ شهرين إجازة كل سنة ، يمضي كل ستة أشهر ، شهراً في إحدى دول العالم .

إنها متعة السياحة التي كان محروما منها ، ويكتشف منافعها كلما تعرّف على إيقاع مجتمع جديد .

يدرك أن ذلك لم يكن يتحقق لولا اتخاذه لهذا القرار الكبير بالخروج من البيت ، إنها مساحة الحرية التي يتمتع بها ، متعة ركوب القطار ، متعة ركوب الطائرة ، متعة ركوب الباخرة ، الحافلة ، ركوب الجمل ، الخيل ، التصوير أمام معالِم الدنيا .

يعود حاملاً الهدايا لأمه التي ما تزال في عملها ، ولأخته حبيبة روحي التي تزوجت من (ديكران) شارطة عليه أن يعيشا عند أمها في ذات البيت .

عندئذ ترك (ديكران) عمله كعازف دربكة في فرقة موسيقية تحيي الحفلات الشعبية ، وتفرّغ لمساعدة حماته في استقبال المرضى متخذاً موقع أسام في هذه المهمة .

الأمر الذي جعل الابن الوحيد يشعر بطمأنينة على أمه لوجود رجل في البيت
.
ثم سنة بعد سنة بدأ ت الأسرة تكبر ، وغدا يجلب الهدايا لبناتها الثلاث :
إيناس ، وسلاف ، ونورهان .
وهو يشعر بسعادة غامرة عندما يقلن له : خالي .

*   *   *

يعيش أسام الآن مرحلة جديدة من حياته ، بعد أن مني بتجربة زواج فاشلة ، تلك التجربة التي وضعته أمام باب جديد من أبواب الحياة .

لم يكن يعلم بأن الإنسان يمكن أن يتحوّل في لحظات إلى كائن عدواني إلى ذاك الحد الذي رآه في زوجته .

كان دوما يبرر لها بعض التصرفات السلبية والمريبة التي كانت تبدر منها ، ولم يكن يتوقع أن يبلغ بها التفكير إلى ذاك الحد من العدوانية .

يتحدث أحيانا مع الآخرين ، وفجأة يستغرق في الحديث دون أن يقدر على التوقف ، يتحدث لساعات حتى يخفت صوته ، ويُغمى عليه .

لاحظت أمه هذا الأمر عليه منذ شهرين عندما كان يتحدث معها ، وكانت حبيبة روحي جالسة أيضاً تصغي إليه ، استمر في الحديث حتى بدأ يلفت أنظارهما ، وعندما رغبا في مقاطعته علما بأنه لايقوى على التوقف .

استمر به الحديث حتى أغمي عليه ، فاتصلتا بطبيب حتى عاد إلى هدوئه بعد أخذ حقنة مهدئة ، ثم أوصاهما الطبيب بتوفير الراحة النفسية ، والبدنية له ما أمكن .

يشعر بحالة من اللاتوازن ، وهو يرى مظاهر الفصام لدى الآخرين ، وكم يتمنى فيما لو تخلص من هذه الحاسة التي ابتلي بها ، وهو على يقين بأنه رأى ألواناً جمة في الحياة خلال هذه السنوات التي عاش فيها حريته الكاملة دون أي مسؤولية , ثم عاش حيناً في مسؤولية الزواج حتى إنه أحياناً لا يظن أن هناك ما سوف يدهشه ، أو يضيف شيئاً إلى الذي رآه وعاشه .

لكنها المصادفة المحضة التي أثبتت له خلاف ذلك , أثبتت له بأن الحياة لاتعلن إفلاسها من تقديم الأبهى , وفقط هو الذي كان يمتلك ذاك الشعور نحوها , وهذه هي مشكلته , وليست مشكلة الحياة .
عندئذ تمتم في سره بأنه رغم ثقته بالنضج ، فإنه مايزال ابن الحياة , يبقى تلميذاً يحتاج أن يتعلم كل هنيهة مهما طال به العمر , ومهما راوده إحساس بالامتلاء , أو الاكتفاء من الحياة .

كان ذلك عندما تناهت نبرات ذاك الصوت من ثنايا أسلاك الهاتف إلى سمعه , لم يملك حينها إلا الصمت أمام هيمنة الصوت البالغ العذوبة الذي زلزل شيئاً راكداً في أعماقه .

لم يملك إلا أن يغمض عينيه ، ويسبح في رحاب تلك النبرات السحرية , وكأنه في حالة علاج روحي .
كل كلمة كأنها عالم جديد ينفتح أمام روحه , كل كلمة كانت تقول له : لكنك لم تر كل شيء كما كنت تظن ، كل إنسان تتعرف إليه هو عالم جديد ، سواء أكان رجلا أو امرأة .
وكأن الإنسان لايدرك حجم خسارة فقدان القيم الثمينة إلا عندما يلمسها ،فيستيقظ للتو على قيمة تشرق بزهو أمام أنظار حواسه .

أجل إنه ربيع بهي ومساحات خضراء شاسعة وغنية ، تتيح نبرات الصوت أن يسبح في محرابها , إنه دخول سحري في فضاءات وربيع الصوت الذهبي : كم أن الحياة ثرية على قدر إنجابها أناساً نبلاء .

انتابه خجل للاعتراف بأنه لايملك قول شيء في حضرة صوتها , وأن مدارج عالم جديد تنفتح أمام فضاءات روحه .

ثمة شمس تشرق لأول مرة في ظلمة كون تائه ,
ثمة نهار يرى سطوعه لأول مرة ,
ثمة ربيع ,
وثمة ليل يفترش الطرقات ، لايشبه أي ليل رآه من قبل ,
ثمة أنغام موسيقية تتناهى إلى سمعه لأول مرة .
ياه هل يمكن لإنسان واحد أن يمتلك كل تلك الطاقات العذبة في روحه , هل يمكن لإنسان أن يأتي بغتة، ويخل بكل المفاهيم التي كادت تترسخ في الذهن .

في أمسية اليوم التالي لم يتردد أن يهتف لها حتى يلمس الحقيقة مرة أخرى , أو لعله كان واهما .
مع سماع النبرات الأولى ، راوده إحساس مريع بأنه يسقط من بناء شاهق العلو , رغم كل محاولاتها في إخفاء حجم الإرهاق من نبرات صوتها ، إلا أنها لم تنجح في ذلك .
بدا الصوت في مسمعه شبيها بأنين , وبدت النبرات تتحول في حواسه إلى مياه نقيه تُرمى فيها حجارة .

لم يملك نفسه ، وهو يصغي لرعشة النبرات المثقلة بذرات الإرهاق , ليس من حقه أن يستمر في الإصغاء لهذا الزلزال الذي احتدم في مسمعه , هل ينقلب الإنسان رأسا على عقب إلى هذا الحد !

أسرع في إنهاء المكالمة ، وهو في حالة ارتباك واضطراب كمن وقع على جريمة مروعة ، وهو ذاهب للنزهة .
جلس على كرسي بلاستيكي مكسو بفراء أرنبة أمام النافذة , نظر إلى حالة الطريق لعل النظر يخفف عنه هول ما سمع .
رفع رأسه ينظر إلى السماء , يستنشق الهواء , لكنه رأى استحالة عدم الخروج رغم تأجيل دام ساعتين .

أخرجته قدماه من البيت لعل الخروج إلى الهواء الطلق ، وسكون الليل يخفف عنه شيئا من ألم الروح , إلا أن كل المحاولات تبوء بالفشل , ثمة كائن ينوح بين جوانحه .
أحس للتو بمدى معاناة الإنسان , بعمق هذه المعاناة , وبالمقابل بعذوبة هذا الإنسان الذي يتعرض لهذه المعاناة .
إنها تعبر عن عمق استيائه من فعل غير إنساني وقع من غيره بحقه , أو منه بحق نفسه .
كأنه ليس هو الذي أخرج الهاتف الخلوي ليتصل مرة أخرى ، ويطمئن عليها , كأنه ليس هو الذي يهتف لامرأة لايعرف عنها شيئا في وقت متأخر من الليل على هاتفها الخاص .

الموقف غاية في الصعوبة بالنسبة إليه , بيد أن ما هو أكثر رعباً هو عودته للبيت ، يستلقي في السرير كأن شيئا لم يحدث . يمتلئ شعورا بأن روحه هي التي تتألم في الطرف الآخر , وتحتاج إلى عملية جراحية نفسية ، رغم نجاته من براثن زوجة كادت تفتك به دون أي شفقة ، لكنها طبيعة الرجل الذي يضعف أمام امرأة جديدة يراها لأول مرة .

بدت هذه المرة هادئة بعض الشيء ، وهي تخبره أنها كانت في حالة قلق , ولكنها كالعادة نجحت في التحاور مع نفسها بهدوء حتى
استقرت : الإنسان هو الطبيب النفسي الأول لذاته ياعزيزي .
عندما يتخلى الجميع عنك - وهذا ما يحدث على الأغلب - فإنك لن تجد غير حضن نفسك لتواسيك ، وتروّح لها بكل حرية ما تشاء .
النفس ياعزيزي الرجل كالمرأة ، تغضب بسرعة ، وترضى بسرعة ، ورجل النفس هو العقل الذي بمقدوره أن يقنعها بحوار هادئ حتى تصفو وتروق .

- وأين هو قمع النفس ياعزيزتي ؟
- هذا يكون في مراحل أخرى ، أعني عندما تميل للخروج عن خطوط حمراء ، عندها لابد من العصا ، والإرغام بالقوة لتأديبها حتى تتقيد بالحدود الفاصلة بين الإنسان والحيوان من جهة ، وبين الإنسان السوي ، والإنسان الهمجي من جهة أخرى .

لم يهدأ قبل أن تناهت ضحكة رقراقة عذبة من ذاك الصوت العذب الرخيم الذي عاد إليه تألقه , كان يريد أن يقول لها ما يخطر ، وما لايخطر في باله حتى يخفف عنها ، ويقنعها بأن من طبيعة أهل السوء أن يسعوا لإلحاق الأذى بأهل الطيب , وهذا أمر لايسبب الألم قدر ما يسبب سعادة .
عندما يسعى الإنسان إلى حياة خالية من الصراع ، فإن مسعاه يمضي هباء : الصراع يا سيدتي يكون أحياناً بمثابو وقود لتفوّ ق عظيم .

تقول بنبرات صوت كسيرة : دوماً أقول بأن علينا التردد كثيراً من إعطاء الثقة المطلقة حتى لأنفسنا .
بدتْ أمامه امرأة أمضت عمرها كله في سواد وإخفاقات , حتى راوده شعور أنها لم تبتسم مرة واحدة بسمة حقيقية عميقة طوال ذاك العمر الذي يمتد بها نحو عتبة الأربعين .
أخذ يتحدث بشيء من السرد غير المتناسق عن لذة المواجهة مع أولئك الذين يصرّون على إلحاق الأذى بالآخرين .
قال : علينا أن نؤمن بوجود شخص يقدم على طعن فراشة في غفلة منها ؟!
قالت : ونؤمن بأنه قد يشعر باعتزاز ، وهو يقوم بذلك .
- : لولا وجود مثل هذا الشخص للبث الإنسان الطيب بارداً دون أن يشعر بلذة المواجهة .
إنه يمنحه فرصة ذهبية يثبت لنفسه وللآخرين بأنه إنسان

مقاوم , وحتى لو لم يحالفه حظ بالانتصار على ذاك الشخص , فيكفيه شعوره العام بلذة أنه لم يستسلم له , ولم يسمح له أن ينتصر عليه .

أظن أن روح الهزيمة يا عزيزتي تكمن في الإذعان ، عندها تموت شجرة المواجهة في أعماقه ، وتفسد ثمارها في تربة روحه .
ما يهم هو أن نبقى في حالة مواجهة ليس مع الآخرين فحسب , بل مع نزعات اليأس التي تتسرب إلى ذواتنا أيضاً , هذا اليأس الذي يريد أن يزرعه الآخرون .
أضافت : كذلك تزرعه وساوس النفس ، أقول لك يا أسام بأن ما يلحقه المرء بنفسه من لأذى خلال مرحلة حياته ، يفوق ما يلحقه به الآخرون من الأذى ، بل يفوق ما يلحقه به حتى الشيطان ، لأن الشيطان لايستقوى عليه إلا عندما يراه ضعيفاً ، بل في كثير من الأحوال تراه يستدعي الشيطان إلى نفسه .
إن أوهن إنسان على وجه الأرض يمتلك طاقة حتى يكون قوياً ، إنها حالة نفسية فقط ، عليك أن تشعر بأنك قوي ، وعندذاك ستكون قويا في مواجهة أي حالة عضوية ، أو نفسية تقف حائلا بينك وبين أن تعيش حياتك بجمالية ، وبسوية ، وباتزان .

عندما أغلق السماعة بعد أن أنهت كلامها ، ازداد يقيناً بنقاء الإنسان , ازداد ثقة بأن الأنقياء يظهرون في كل العصور, لكننا بحاجة النقب عنهم, لأنهم

لاينقبون عن أحد , وعدم اكتشافهم من قِبل الآخرين لايعني لهم شيئاً هاماً ,
إنهم لا يحتاجون إلى الآخرين قدر حاجة الآخرين
إليهم .
لذلك علينا أن نكون دائمي السعي للتنقيب الدقيق عن هؤلاء الذين هم ملح
الحياة , الحياة التي تبقى نيئة وباردة دونهم .

ازداد يقيناً بعمق حاجته إليها , لأنها أصبحت معادلاً حقيقياً لكل ذاك التاريخ
الحافل الذي عاشه .
المرأة أتت إلى هذا العالم حتى تمنح كل شيء للرجل , وهي تملك مقومات أن
تمنحه كل شيء ، كما أنها تملك مقومات أن تأخذ منه كل شيء .
عندئذ تمتمت له نفسه :عالم قاحل من الصحراء ، يمكن أن يتحول برفقة
امرأة عذبة إلى ربيع أبدي لانهاية له .

*   *   *

راشدة تأتي في هذا الوقت الصقيعي ، وتوحي لك بأن ما عشته , وما عاشه الإنسان خلال مسيرته في الحياة ، لايعادل جزءاً يسيراً من المخفي الذي لم تره له خفايا الحياة , ولم يخطر له ببال .

راشدة , المرأة التي تعيش فيض ثراء العزلة , التي تجرأتَ ، وطرقتَ بابها لأول مرة بأنامل راعشة بعد أن أقنعتك أختك (حبيبة روحي) بضرورة الذهاب إليها ، ولو من باب التعرف إلى امرأة لها خصوصية في هذه المدينة ، فهي طبيبة ماهرة ، لها خبرة جيدة في التعامل مع الاضطرابات النفسية .

أكدتْ لك بأن زوجها (ديكران) أيضاً منذ سنتين لجأ إليها عندما دهمته بغتة نوبة اكتئاب .
عجزتْ (السيدة) وهي تطببه دون أن يحالفها نجاح في ذلك ، ورأت أن توجهه لاستشارة طبيب نفسي .
كان أحياناً ينسى نفسه في الحمّام ثلاث ساعات , ينسى بأنه زوجها , يفقد شعوره بالمكان , بيد أن راشدة قدمت له العلاج الجيد الذي أذهب عنه ذاك الوسواس اللعين ، وهو الآن يتمتع بحياة هادئة عائدا إلى طبيعته .
تحدثتْ لك حبيبة روحي طويلاً حتى أقنعتك بفكرة الذهاب لأن الإنسان لايمكن له أن يستغني عن خبرة الإنسان .

وقفتَ أمام باب العيادة المغلق , قرأتَ اسمها على اللوحة المضيئة ، امتدتْ يدك تطرق بابها وكلك تردد :
كيف تأتي إلى مكان كهذا يا أسام ، وقد ترعرعت في بيت يأتي إليه الناس بحثاً عن علاج .
تخيلت كل ذاك الحشد الهائل من المرضى ، تخيلت بأنك أحد هؤلاء ، وسوف تدخل غرفة السيدة .
ابتسمت بسمة صماء شاحبة ، ولكن عدت وتذكرت قول أختك بأن الإنسان لايمكن له أن يستغني عن خبرة أخيه الإنسان .
طاب له أن يسترجع كل تلك الوقائع وهو يصغي إلى حديث نفسه بحميمية :
عندما استكانتْ عيناك على ملامحها أول وهلة ، لاتدري لِم اعتراك شعور بأنك ترى إنساناً جديداً لاينتمي لهؤلاء البشر الذين تراهم كل يوم .

امرأة كأنها أتت من كوكب آخر , لفت نظرك أنها تداوم بين حين وآخر على حك صدغها بسبابتها ، وكأنها حركة اعتيادية .

امرأة لم تكن شبيهة بالنساء اللواتي رأيتهن ، وتعرفت سواء عن بعد ، أو عن قرب إليهن .
كانت تبدو رجلا , وتبدو امرأة في وقت واحد , ولاتدري لِم رحت تحدّ ق في وثيقة الاختصاص التي حصلتْ عليها من فرنسا , لكنك بعد أن عرفت بأنها في الأربعين من عمرها , وأنت تركّز نظرك على تاريخ الميلاد جيداً كمنقّب آثار وقع بغتة على قطعة أثرية نفيسة صغيرة الحجم ، يقرأ حروفاً صغيرة محفورة عليها ، دون أن تجعلها تلحظك , كأن تلك الوثيقة لم تعد تعنيك , لم تعد تلفت انتباهك , وحتى لو لفتت انتباهك ، فإن نظرك لايقع منها إلا على تاريخ الميلاد .

بعد قليل أدخلتْ إليك الممرضة اللبقة الغارقة في حالة هدوء كأساً من شاي أخضــر ، وانصرفت .
في تلك اللحظة قفز إليك إرشاد أمك بأن تقدم لمن بهم اضطراب كأساً من شاي أخضر ، أو ما إلى ذلك من شراب مهدئ .
ثم استطعت أن تستوعب رغبتها في التخفيف عنك قائلاً لها في سرك : شكراً ياسيدتي على هذه العناية ، ونحن في الخطوة الأولى .
لم يكن بوسعها أن تخفي علامات الارتباك وهي تحدثك , وربما أدركت بأنها لن تنجح في إخفائها عن شخص امتلأ بالحياة ، وقد يراود هذا الشخص

إحساس بعض الوقت بأن الحياة لم تعد أكثر من ورقة خريف مرمية على ساقية جافة .

كل سؤال كان يوحي لك بأنها تريد أن تتعلم منك , بدتْ أمامك شديدة التعطش لمعرفة ماتجهله من خلال نافذة بدت أمامها في وجهك , وهي التي لم تكن خبرت كثيراً من أحداث الحياة ، ولم تخض تجارب قاسية فيها .
قالت : سيدي ، نحن سنتعاون حتى ننجح في ألا نضيع وقتنا الثمين سدا .

ثم صمتت قليلا ، وأردفت بنبرة هادئة : عُـدّ نـي صديقة مقرّبة لك إن لم يكن لديك مانع من منحي هذه المنزلة ؟
سارع في القول : العفو .. يشرفني ياسيدتي ، وأنا اقدر عالياً تواضعك ، وهو تواضع العارفين .

أردفتْ : وفي بعض أسئلتي يمكنك عَدّي مريضة لديك ، أوطالبة وأنت أستاذها .
قال : تحرجينني بتواضعك الجم ، لو لم أكن أعلم بأنك تملكين خبرة تعالجيني بها ، لما طرقت بابك .
قالت : ماهو غاية في الأهمية أن تبقى العلاقة بيننا وثيقة حتى نستطيع أن نصل إلى غايتنا من الجلسات التي نكون فيها معاً .

أحس بحالة من النشوة والانشراح ، وكأنه يستمع إلى موسيقى عذبة ، فاستأنف الإصغاء إلى حديث نفسه وقد علت شفتاه بسمة :

بعد شهرين من العلاج , طلبتْ إليك التعرف على الأجواء التي تعيش فيها , ترى الأركان التي تجلس ، وتمارس حياتك اليومية فيها .
ورغم أنه سؤال بارد ومكرر، فإنها طرحته بشكل مثير وساخن عندما سألتك عن سبب عدم سعيك للزواج ثانية خاصة وقد مضت ثلاث سنوات على تجربة الزواج الفاشلة التي منيت بها .
لاتدري لماذا امتلأتَ رغبة لتقول لها الحقيقة كلها , تخبرها بأنك لم تنجح في التعرف إلى امرأة أخرى تقنعك بأنك ستكون مستقراً معها , وتقنعك بأنها تكون مستقرة معك ، ومن جهة أخرى تقنعك بأنها مساحة من الأمن .
قلت لها إن الزوجة هي عنوان الرجل ، وهي التي تقدمه للآخرين .
الرجل يُعرف من زوجته ,
وأضفت : نحن الرجال نقول : قل لي من هي زوجتك , أَقلْ لك من أنت .
لذلك كنت تتردد من الاقتران رغم تعدد العلاقات والمحاولات .
لم تنجح امرأة لإقناعك بأنها سوف تكون أنت الغائب الحاضر فيها , تكون عنوانك وواجهتك ومقدمتك سواء كنت غائباً أو حاضراً .
كم من رجل يتلقى عبارات الثناء في موضع تنوب عنه زوجته فيه , وكم من رجل يتلقى عبارات التوبيخ في ذاك الموضع .
شرحت لها وجهة نظرك في الزواج ، وقلت لها بأن
المرأة عندما تكون جالسة تتفرج على التلفاز ، أو تحيك شيئاً ما ، يمكن لزوجها أن ينهض ويتمدد على الأرض ، وقد وضع رأسه في حضنها ، شاعرا بعذوبة الأمومة في تلك اللحظات .

*   *   *

هاهي امرأة ثانية يأنس إليها بعد ثلاث سنوات من تلقي الصدمة الكبرى التي يُعدّها أسوأ صدمة تلقاها في حياته .

اشتعلت بدايات تلك الصدمة عندما أخبرته أخته (حبيبة روحي) أن أخت زوجها البالغة من العمر خمساً وعشرين سنة فقدت هويتها الشخصية منذ شهر ، ولعلمها أنه على علاقة وثيقة بأمين السجل المدني ،لأنه يسكن في بيت مجاور له ، وسبق لها أن رأته كثيراً في بيته ، طلبت منه الذهاب إليه حتى يخبره بالأمر ، ويتخذ إجراءات الحصول على هوية بديلة .
كان الطقس شديد البرودة ، في بداية شهر كانون الأول ، والثلج هطل على كل المناطق المجاورة للمدينة ، لذلك يلفحها بهواء قارس ربما أكثر من المناطق التي اكتظت شوارعها وأسطح بيوتها ببياض الثلج .
كانت الساعة تدنو من الثانية عشرة ظهراً عندما وصل إلى باب المديرية ، وهو يحمي وجهه من أنسام الهواء البارد .
فوجئ بحشد من الشبان والشابات أمام باب المدير ، فعرف بأن ثمة مسابقة ما سوف تُجرى من أجل اختيار بعض الموظفين الجدد .

تمهّلت به قدماه بمحاذاة الباب ، وخطرت له فكرة العودة لأن الوقت غير مناسب ، لكن البرد في الخارج منعه من العودة لأنه اضطر أن يوقف سيارته بعيداً عن مبنى السجل ، وعليه أن يقطع مسافة طويلة سيراً على قدميه حتى يصل إلى السيارة .

بعد تردد ، مد كفه طارقا الباب ودخل ، فرحب به صديقه (كادي) واستقبله بحرارة ، وراح يقبّله محتفياً بهذه الزيارة المباغتة التي لاتحدث إلا نادراً ، رغم أنه أدرك في أثناء جلوسه بأنه أتى في وقت غير مناسب ، لكن صديقه خفف عنه هذا الشعور عندما أصر عليه بالجلوس ، وطلب له فنجاناً من القهوة قائلاً : لاتشغل بالك ياصديقي ، كنتُ بحاجة إليك .

وعندما رأى علامات التعجب ترتسم على محيا ه ، استأنف : وسط هذا العمل المزدحم ، يبحث الرجل منا عن صديق يأنس به ، ويخفف عنه هذا الشعور الذي لاينتهي بحجم العمل الذي عليه أن ينجزه .

لايمر أسبوع دون أن نلتقي سواء في بيتك ، أو في بيتي ، أو في أحد الأماكن العامة مع الأصدقاء ، وإن لم يحدث ذلك جئتك إلى المحل لأشرب الشاي معك ، لكن زيارتك لي في المكتب لها خصوصية .

ثم أضاف مبتسماً : بعد قليل سوف أستقبل هؤلاء الذين أتوا حتى أجري لهم اختبارات أولية كي أختار المؤهلين لبعض الوظائف الشاغرة التي توفرت لدينا بعد صدور قانون التقاعد الجديد .

أردف وهو يدعوه لتناول القهوة مشيراً للمستخدم أن يهيئ الدور لدخول المتسابقين لدى الانتهاء من القهوة فورا : أرجو أن تعد نفسك مساعداً لي ، وتضع في هذا الكرّاس الصغير ملاحظاتك على الداخلين والداخلات .

هذا يحتاج إلى نظر ثاقب منك ، وأنت معروف عنك بعدم توجه نظرك إلى الأشخاص الذين تتحدث إليهم ، الأمر هنا مختلف يا صديقي لأن النظر إلى الشخص وهو يتحدث ، يفيد في تقديم صورة عن شخصيته .
عندذاك نسي أسام السبب الذي جلبه إليه ، فقال : ياعزيزي إنها مسؤولية أرجو أن تعفيني منها ، وأعدك بأنني سأجيء بعد عدة أيام ، أتناول عندك فنجاناً من القهوة ونتحدث .
قال كادي وقد نهض عن كرسيه مانعا إياه من المغادرة : قلت إنني أحتاج إليك يارجل ، كيف تتخلى عني وأنا استنجد بك ؟!
صوّب نظرة إليه فأتاه حديثه لنفسه : لقد أحرجت صديقك يا كادي ، وأنت تعرف بأنه يتحسس من مسألة النظر إلى الآخرين ، (علّ به عذرا وأنت تلوم) .
قال : أمرك يا صديقي ، سوف نستأنس لبعض الوقت في دار الحكومة هذه .

قال كادي : لا , لا أناجاد في اقتراحي هذا ، أنت لديك خبرة جيدة في الحياة ، وتستطيع أن تعينني في اختيار المؤهلين لهذه الشواغر .
تعرف يا أسام أنني أعتبر نفسي أشغل وظيفة غاية في الحساسية ، سوف أكون قدوة للموظفين ولكل مدير يأتي من بعدي .
هناك الكثير من المفاهيم عليّ أن أصححها لدى الناس ، ولا أخفيك خوفي وقلقي ، علينا أن نفعل شيئاً ياصديقي ، أو مايمكننا أن نرغب في فعله .
قال أسام بشيء من حذر : لكن بشرط ألا تأخذ بملاحظاتي ، وتعدها وجهات نظر فقط .

لاأريد أن أتسبب في حرمان أحد من فرصة عمل قد يبني عليها مستقبله ، والأمر الآخر ، فأنا لستُ في وضع معنوي يمكّنني من تسجيل ملاحظات دقيقة كالتي تريدها .
ابتسم كادي وهو يقول : كن على ثقة بأن ما تبديه لن يكون أمراً ملزماً علي ، إنها وجهات نظر تغني تقييمي العام والأولي للشخص الذي أنظر إليه ، وأحدثه للوهلة الأولى .

مع انتهاء الحديث ، أشار كادي بيده للمستخدم كي يبدأ بالنساء أولاً ، عندئذ رأى أسام نفسه تحت مسؤولية الأمر الواقع ، فأخذ يصغي للأسئلة واضعا ملاحظاته على الكراس ، وأحياناً يوجه بنفسه بعض الأسئلة التي تخص شخصية المتقدمة حتى يرى ملاءمتها لنوعية الوظيفة الشاغرة .
في تلك اللحظات راوده إحساس بحاجته لزيارات كهذه ، حاجته لتغيير النمط اليومي الذي يسيّر حياته .
راوده إحساس بأنه انتقل إلى ركن آخر من العالم ، وولج أجواء أخرى ، إنها الحاجة لتأمين لقمة العيش ، الحاجة لبناء مستقبل .
إنها النظرة الجادة إلى حياة مليئة وحافلة بالعمل وتحقيق الأمنيات .
تذكّر بداية حياته ، وذاك الكد اليومي المتواصل في سبيل تجنيب النفس سؤال الآخرين .
عندما نادى المستخدم بالاسم السادس ، وثب على قدميه ، وقد استولت عليه حالة من الدهشة .
رنّت حروف الاسم كالصدى في مسمعه ، إنها روان التي جاء من أجلها !

بدأ يسترجع ملامحها في ذاكرته .. مرات قليلة رآها في البيت ، ربما لا تتجاوز خمس مرات .

كانت أحياناً تنادي إحدى البنات قائلة : تعالي إلى حضن عمتك .

كان يشرد بهذا الغنى في العلاقات بين الناس .

إنها عمة الطفلة التي هو خالها ، هذه الطفلة جمعت بينه وبينها ، جعلت بينهما صلة قربى .

عندما يراها في مكان ما ، لايستطيع أن يتجاهلها ، سوف يقول بأنها عمة إيناس ، وسلاف ، ونورهان .

وهي كذلك عندما تراه ستقف أمام هذه القرابة التي ولـّدتها ثمرة الزواج .

تـُرى مالذي ستشعر به عندما تراه في هذا المكان غير المتوقع ، وكيف سيكون منظره أمام كادي ، وهو يستقبلها ؟!

هل يُعقل أنها تقدمت إلى المسابقة دون أن تخبره أخته حتى لاتسبب له إحراجاً مع المدير وهي تعلم الصداقة الوثيقة بينهما ؟

هل تلقـّى مقلباً من أخته ، وأن الفتاة لم تفقد بطاقتها الشخصية ؟!

نظر إليه كادي مستفسراً عن سبب وقوفه المفاجئ وقال : هل ضجرت المتابعة ياأسام ، إن كان ذلك ، لابأس ، نأخذ قسطاً من راحة ثم نعود .

عاد جالساً على كرسيه مقرراً أن يخفي السبب حتى لايحرج صديقه ، وهو يعلم بأن الداخلة هي قريبته ، ومن طرف آخر حتى لايتسرب إليه شك بأنه تقصّد المجيء في هذا الوقت من أجل أن يتوسط لها ، وهو أمر لم يعجبه البتة أن يرى نفسه فيه .

عندذاك أشار المدير إلى المستخدم بأن يُدخل المتقدمة التي بلغها الدور، وكأنه يتحدث على إيقاع حفقات قلب أسام في هذا الموقف المحرج الذي لايعرف كيف دخله ، ولم يعد بمقدوره الخروج منه .
لبثت عيناه في الباب حتى دخلت فتاة ممشوقة ، لم يسبق له أن رآها .. نظر إليها مليا ، ثم امتدت أنامله تسحب إضبارتها ، ينظر في الاسم جيداً ، ثم ينظر في اسم الأم ، ثم في الصورة ، ثم يصوّب نظره إلى وجهها .
لم تكن الفتاة تتحدث بعبارة واحدة في نفسها ، كانت الدهشة مستولية عليها . تمعّن في النظر إليها ، لعلـّها تحادث نفسها بعبارة واحدة ، بيد أنها لبثت مرتبكة جاحظة العينين ، وعندما لمح كادي يستغرب لعمق نظره إلى الفتاة استدار ، وراح يتذكر بأنه منذ نحو سنة رآها آخر مرة في البيت ، كان ذلك عندما دعته حبيبة روحي للمشاركة في الاحتفال بعيد ميلاد إيناس العاشر .
هل يمكن للإنسان أن يطرأ عليه كل هذا التغيّر، وبالمقابل إن كان قد حدث معها ذلك ، هل يمكن أن تنسى ملامحه ؟
إنها تقف أمام شخص تراه ، ويراها أول مرة :
أمعقول هذا الذي يحدث ، ماذا أصابك يا أسام ، هل يعقل أن يتطابق كل شيء إلى هذا الحد باستثناء عنوان السكن ، ورقم الهاتف .
في تلك اللحظات بدأ المدير يسألها بلهجته الجادة ، وهي تجيب بشيء من الارتباك مصوّبة عينيها إلى أسام .
وقف أمام حقيقة أن رواناً فقدت بطاقتها الشخصية ، وأنه قادم إلى هنا من أجل هذا الأمر ، وليس من أجل المسابقة .

أخذت أفكاره تتشتت ، وهو ينظر إليها تجيب عن أسئلة المدير بما تملك من حذر وتركيز .
ينظر أسام إليها وهو يتمتم في سره : هل أرسلتها روان لتنوب عنها في حضور المسابقة لسبب طارئ وقع معها ؟
هزرأسه بالنفي مجيباً : كانت حبيبة روحي أخبرتني بأمر كهذا، وهي تعلم بأنني ذاهب اليوم إلى هذا المكان الذي هو موعد المسابقة .

عندما أحس بأنها على وشك الخروج والمدير ينهي أسئلته ، طلب إليها التريث قليلاً ، وهو يمد يده إلى الهوية الشخصية ، ثم إلى الإضبارة مرة أخرى ويقلبهما بين كفيه ، ينظر إليها ، ثم ينظر إلى البطاقة دون أن يفوه بكلمة ، ودون أن تفوه الفتاة في سريرتها بكلمة .

ارتعدت الفتاة في مواجهة صمته ونظراته المريبة ، فوصلته إشارة أولى بأمر غير عادي ، باضطراب بدأ يشتعل في داخلها .
علا وجهها اصفرار ، اصطكت ركبتاها بشكل واضح وهو مايزال في حركاته الصامتة وكأنه يقول لها : لقد كشفت الأمر ، وبانتظار أن تتحدث في نفسها بكلمة واحدة .
عندذاك سمعها تردد في سرها : يا رب .. يارب .. يارب .
هز رأسه وقد استدار إلى صديقه واضعاً الإضبارة على الطاولة .
عندئذ مدت الفتاة يدها إلى الهوية ، وتناولتها من يده وهو ينظر إليها مدركاً أنها أدركت بأنه يعطيها شيئاً ليس لها .

دستها على عجل في حقيبتها اليدوية الصغيرة وبرحت المكان على الفور .

لبث أسام مع صديقه إلى الثانية محاولاً نسيان ماحدث ، وقد أقنع نفسه بأن أي فعل يقوم بها ، لن يكون في محله ، لذا قرر تأجيل التفكير بهذه الحادثة حتى عودته للبيت ، فيكون مهيئاً لأخذ قرار والتصرف على ضوئه .
استمر عمله حتى بدأت الحركة تخف ، ويخلو المكان .
قال كادي : الآن يا صديقي سوف نذهب لنتغدى في إحدى المطاعم .
أنت وحيد ، وأنا زوجتي في زيارة أهلها ، ولا أظن أننا نستطيع أن نعد كأساً من الشاي بعد كل ما بذلنا من إرهاق .

اتجها إلى مطعم وتناولا الغداء إلى نحو الرابعة عصراً ، ثم عاد إلى بيته دون أن يخبر صديقه بالسبب الذي كان خلف مجيئه .

صبيحة اليوم التالي رأى بأنه غدا مستعداً لإعادة التفكير فيما جرى له ، ولم يكن يهمه فعل ذلك لولا أن الأمر يعنيه ، وأن حبيبة روحي الملحاحة على وشك الاتصال به لتعرف ما استجد بالنسبة لمطلبها .
أخرج رقم الهاتف الذي أخذه من الإضبارة ، واتصل بالفتاة في منزلها

جاء صوت رجل به بحة ، فقال : صباح الخير يا عم .
- طاب صباحك يا بني .. تفضل
- أهذا بيت الآنسة روان ؟

- لا ، خطأ

وعلى الفور دوى صوت إغلاق السماعة في أذنه ، دون أن يتمكن من قول كلمة أخرى .

انتبه للتو بأنه ارتكب خطيئة بطلب الاسم ، فأعاد الاتصال ليسمع ذات الصوت .

قال : أنا آسف يا عم لأن الأمر التبس علي ، أتحدث معك بخصوص تسجيل فتاة للتوظيف لدى أمانة السجل المدني نهار البارحة ، وقد تركتْ على إضبارتها رقم الهاتف هذا .

قال : أعتذر مرة أخرى ، صحيح هذا الكلام ، لكن يبدو بأن الأمر التبس عليك نتيجة الطلبات الكثيرة ، ابنتي اسمها (وسن) ، وقد أخبرتني بذلك البارحة .

أنهى كلامه ، واتجه بصوته قائلا : هناك مَن يريد التحدث معك بشأن طلبك للوظيفة يا وسن .

بعد نحو ثلاث دقائق جاء صوتها : نعم يا سيدي ؟!

قال على الفور : آنستي ، صباح الخير ، أنا الشخص الذي كنت معاونا لأمين السجل المدني نهار البارحة .

تسربت رعشة إلى نبرات صوتها وهي تقول : أهلاً وسهلاً سيدي ، هل من شيء طرأ بخصوص المسابقة بهذه السرعة ؟

- ليس بخصوص المسابقة
- بخصوص أي شيء ؟
- بخصوص أمر الهوية الشخصية

توقف صوتها ، وخمّن أسام أنها استعانت بشربة ماء ثم قالت : أي

هوية ؟!

- هويتك
- مابها هويتي يا أستاذ ، أليست نظامية
- هي نظامية وغير نظامية في وقت واحد
- لم أفهم ، أرجو أن توضح لي .
- إنها نظامية لأنها صادرة عن أمانة السجل المدني حسب الأصول ، لكنها غير نظامية لأنها لاتعود إلى شخصك .

تأكدت الفتاة من الشكوك التي راودتها لحظة حمله للإضبارة في المكتب ، وتصويب نظرات مريبة إليها ، فقالت بلهجة استسلامية : أرجوك ألا تفضحني لأن في ذلك مساءلة قانونية أنا بغنى عنها .
صمتت بعض الوقت ، ثم بدأت تشرح له كيف وقع الأمر ، فمنذ شهر علمتْ متأخرة بموعد التقدم إلى مسابقة أعلنتها الأمانة .
اتجهتْ مسرعة كي لايفوتها تسجيل اسمها ، وبينما هي في الطريق وقعتْ على هوية شخصية على الأرض ، قالت بصوت راجف :
حملتها ياسيدي ، وأنا أقول في نفسي بأنني سوف أعيدها إلى أمين السجل المدني بعد فراغي من التسجيل كي يعيدها لصاحبتها .

لكن الذي حدث أنني في الديوان فوجئتُ بنسيان هويتي في البيت ، وأنه اليوم الأخير الذي يغلق فيه باب التسجيل ، فإن عدتُ إلى البيت ، لم أضمن لحاقي بالدوام الذي شارف على الانتهاء .

لم يبق أمامي غير أن أخرج الهوية التي بحوزتي ، وأقدمها للموظف حتى يسجل الاسم بموجبها .
أمام هذا الذي حدث ، لم يبق لي خيار غير الاحتفاظ بالبطاقة حتى أستطيع التقدم للامتحان .
أضافت الفتاة متوسلة : أعدك بأنني سأعتبر أن شيئاً لم يحدث ، وبعد قليل سوف أذهب إلى السجل المدني لأسحب الإضبارة ، وأعتذر عن المسابقة .

قال وقد علت ثغره بسمة : هذا أمر جيد ، ويكفّر عن الخطيئة .

ثم بعد قليل من صمت ، والفتاة تنتظر ما سيقول ،
أضاف : بقي أن تعيدي الأمانة إلى صاحبتها .
قالت : ياسيدي أنا جاهزة ، وهي موجودة لدي ، لكن لي رجاء لديك .
قال : أي رجاء ؟
قالت : أن تعينني على إعادتها .

عندئذ أخبرها بعنوان متجره حتى تعيد إليه البطاقة بعدما عرفت صلة القربى بينهما ، والسبب الذي كان خلف ذهابه إلى السجل المدني .
عند الساعة الرابعة من مساء ذات اليوم وقفت الفتاة أمام متجر ضخم مكتوب على لائحته في الأعلى : محلات أسام لبيع السمن البلدي ، والبيض ، والجبن ، وزيت الزيتون ، والصوف ، والقطن .

دنت من عامل يرتدي جلبابا متسخا ، متوسط القامة ، له ملامح جدية صارمة . بدا أمامها بأنه رجل لاينام ، يظل يقظاً طوال الليل والنهار .
كان يقف أمام ميزان حديدي ضخم يزن جزة كبيرة من صوف الأغنام أحضرها صاحبها للتو من إحدى القرى ، يتحدث مع الرجل وكأنه في شجار معه ، و الرجل يقول : اهدأ يا معلم شمّو ، نحن عملاء هذا المحل ولانريد تغييره ، غيرك يدفع أكثر ، الأسعار ارتفعت يا معلم شمّو .
أهدأ قليلاً من روعه وقال : تكرم يا سيد ي .. تكرم .

كان ، أسام قد تعرف على (شمو) من خلال زوجته التي كانت تراجع السيدة تاج على الدوام شاكية زوجها الذي أصابه الوسواس ، وبات لايطاق ، فتقدم لها السيدة بعض التوجيهات ، عندئذ أراد أسام أن يلتقي بهذا الشخص ، فكان له ذلك ، ثم بعد أن خرج من البيت ، واشترى هذا المحل أراد أن يذهب إلى شمو ويطلب إليه العمل في المحل ، فوافق شمو ممتنا له هذه اللفتة الكريمة .

كان شمّو حينذاك في الخامسة والثلاثين يعاني ذروة الوسوسة ، حتى أنه أحياناً عندما يمشي في الشارع يظن بأنه نسي نفسه في أحد أركان البيت ، وبالفعل يعود إلى البيت ، ينظر في ذات الركن ، ثم يخرج مرة أخرى دون أن يخبر أحداً بما حدث له .
يمكن لشمو بكل بساطة أن يرى زلزالاً يقع في الطريق الذي يمضي فيه ، أو يرى فم بئر في باب سيارة يصعد إليها ، أو يرى بناء ينهار قبل أن يمر بجانبه ، فيمتنع من مد أي خطوة في تلك اللحظات إلى تلك الأماكن ، لكنه

في اليوم التالي يكتشف بأن أي زلزال لم يقع في المدينة ، وباب السيارة لم يكن فم بئر ، والبناء قائم في مكانه .

كانت زوجته التي تروي كل هذه الأحاديث على مسمع جارتها (السيدة) تعاني مرارة هذا المرض الذي ألمّ بزوجها ، وتقول بأنها خائفة من تسرب هذا المرض إليها ، وروت لها سبب خوفها الحقيقي من هذه العَدْوى ، فقبل شهر بينما كانت تتحدث مع أختها التي كانت تزورها في البيت ، وكان شمو جالساً على كرسي في فناء الدار ، اضطرت الزوجة للرجوع خلفاً عندما أخرجت مع أختها الفرن الكهربائي من المطبخ ، عندذاك انتفض شمو من كرسيه صارخاً في وجهها ، وموبخاً إياها على هذا الفعل غير اللائق ، وقد قيل بأن الإنسان يخرج من الأبواب بوجهه وليس بقفاه .

من يومها أصبح يوجه لها التحذير الشديد كي لاتقع في ذات الفعل غير اللائق ، وكلما عاد من الخارج سألها إن كانت فعلت ذلك أم لا ، ووصل به الأمر إلى أن نصب ابنه دسيساً حتى يخبره إن كانت أمه عندما تخرج من باب المطبخ ، هل تخرج مولية وجهها الباب أم أنها تتراجع خلفاً حتى تخرج ، وأخبر الابن أمه بما سمعه من الأب ، لكنها طلبت إليه أن يبقي ذلك طي الكتمان ولايخبر أحداً ، وفي ذات الوقت أصبح لديها شعور بأن الابن أيضاً بات ينتظر منها حركة كهذه ، وهو يخفي أثر بسمة كلما ولجت أمه المطبخ ، وكلما خرجت منه .

بهمس خافت صارحت الجارة بأنها منذ يومين فقط وعندما نهضت في الثالثة صباحاً متجهة إلى المرحاض ، وقفتْ للحظات وهي تنظر إلى باب المطبخ ، ثم مدت خطوات بطيئة وفتحت الباب ، أدخلت جسدها بسرعة ، ثم

استدارت لتخرج مولية ظهرها الباب ، وفي أثناء ذلك ارتطمت قدمها بالعتبة مما أدى إلى سقوطها على ظهرها من الخلف ، فانتفض شمو من نومه فزعاً إثر سماع الصوت ، ليأخذها بالجرم المشهود ، و يكيل لها الركلات والشتائم .

كان، أسام جالساً في ذات الغرفة مع أمه يسمع الحديث ، فطلب منها التعرف على زوجها ، وبعد اللقاء الأول به ، عقد معه علاقة صداقة وثيقة ، كان يشعر بأنه شخص صريح يقول الحقيقة ، وربما هو من النادرين الذين يسمع منهم ذات الحديث الذي يدور في نفوسهم ، إنه شخص أمين بامتياز رغم كل المؤاخذات الاجتماعية والنفسية عليه .

في تلك اللحظات استدار شمو ، فرأى الآنسة تجاوره واقفة .

ترك ما بيديه رغم استعجال القروي الملح وقال : تفضلي يا آنسة ، نحن بالخدمة .

قالت : أريد المعلم أسام لوسمحت .

أمعن النظر إلى وجهها بدقة ، ثم بعد قليل من الصمت أشار إليها ثلاث إشارات نحو داخل المحل المؤلف من عدة غرف على مساحة نحو خمسمائة متر .

عندما اتجهت ، لبث شمو ينظر إليها حتى نبهه الرجل قائلا : الله يرضى عنك يا معلم شمو ، حاسبني ، لدي أشغال كثيرة في السوق .

دبت الفتاة بخطوات واثقة نحو مكتب مغلق يقف أمامه رجل عجوز يتمتع ببساطة شديدة في الملامح وفي الهندام معاً .

طلبتْ إليه أن تدخل حيث المعلم ، فرحب بها ، وهو يمهلها قليلا ليدخل غرفة معلمه مخبرا إياه بأن ثمة فتاة تدعى (وسن) تسأل عنه .
تذكر أسام بأنها الفتاة التي سوف تعيد البطاقة .
طرقتْ الباب ودخلت لدى سماع صوته يؤذن لها بالدخول ، دعاها للجلوس ريثما ينهي مكالمته الهاتفية التي خمنتها مع أمه .
جلست الفتاة وهي تستشعر الدفء من جهاز التكييف الذي يعمل على الغاز بعد البرد القارس الذي تعرضت له في الخارج .

بعد قليل دخل الرجل العجوز مقدما كأساً من الشاي لها وكأنه كان جاهزاً بانتظار وصولها .
تناولتها وهي تتمتم في سرها : سوف يزيدني هذا الشاي الساخن دفئا .
لدى إنهاء المكالمة ، أعادت الفتاة اعتذارها الشديد عمّا بدر منها ، وشكرته على شهامته ، ثم بعد لحظات أخرجت الهوية من ذات الحقيبة التي كانت تحملها ، ومدتها إليه .
كل هذا وأسام ينظر إليها ملياً ، وكأنه يبحث عن شيء خفي في ملامحها ، ثم مد يده متناولاً الهوية ، وهو ما يزال ينظر إليها .
في تلك اللحظات خطر له أن يقارن بين حديث العيون ، وحديث الوجوه ، وحديث النفس ، وحديث اللسان .
بدت أمامه مثالا للتجربة الحية ، وهو يتأمل معالم هذا الشتات في ثنايا كل هذه اللغات ، لسانها يقول شيئا ، ونفسها تقول شيئاً ، وجهها يقول شيئاً ، عيناها تقولان شيئا .

إنه يقف الآن على ضفة (الفصام) .

في تلك اللحظات بدأ يكتشف أمورا جديدة لم يكن يعلمها .
علم بأن الوجه بصفة عامة هو نبض الباطن ، لايقتصر ذلك على وجه الإنسان فحسب ، بل يشمل كل كائن على وجه الأرض .
الحيوان الأليف المسالم له وجه وديع يبعث على الطمأنينة ، والحيوان الشرس العدواني ، يتقدمه وجه يبث الذعر والشر .

وضع الهوية في جيب سترته ، ووعدها أن يبقي الأمر سراً على أن تذهب غداً لتسحب اسم روان من المسابقة .

كررت اعتذارها الشديد على ما بدر منها مبررة ذلك بأنها تنتمي إلى أسرة تعيش في حالة من الفقر المدقع بعد أن تعرض والدها الذي كان يعمل في حفر الآبار البترولية لإصابة عمل في شركة النفط ، ولايوجد أي مصدر معيشة لأسرتها المؤلفة من ابنتين وأبوين غير راتب الأب المصاب .

شرحت كيف أن تلك الخطيئة التي بدرت منها أخسرتها تلك الفرصة ، وكان يمكن مصارحة الموظف ، والطلب إليه ليصنع معروفاً وينتظر حتى تحضر البطاقة ، أو يسجل اسمها وبعض المعلومات التي تحفظها ريثما تجلب الهوية صباح الغد حتى يضيف ما تبقى من معلومات ، بيد أنها تسرّعت .

كانت تتحدث وأسام يصغي إليها ، ويشرد بأمر خطر له لأول وهلة ، هل يمكن أن تكون (وسن) المرأة التي تكون زوجة له ، أن تنجب له أطفالاً ، إنها من أسرة متواضعة ، ويمكن له أن يعلمها الكثير من تجارب الحياة .
بذات اللحظة خطر له أنها يمكن أن تسبب له إشكالات بسبب البساطة الشديدة التي تبدو عليها حتى إنها تبدي في بعض المواضع شيئاً من الغباء ، فهل سيكون بوسعه أن يمضي عمره مع امرأة غبية بعد كل هذه السنوات من الانتظار والخبرة .

- لكن يا أسام ، كما أنك احتجت لبذل جهود حتى استطعت أن تنفتح على أبواب الحياة ، عليك أيضاً أن تبذل جهوداً حتى تستطيع أن تنسجم مع امرأة سوف تشاركك الحياة برمتها .

تذكر دوماً يا أسام أنك تمد قدميك نحو الأربعين ، والانتظار لم يعد مجديا .
عاد يستمع إلى حديثها ، وهو يتخيل وجودها زوجة في بيته ، ثم ينظر إلى نفسه ، وقد غدا أباً ، يتخيل وقائع حياة زوجية غنية بإيقاع جديد لحياة مختلفة عن التي عاشها .
عندما أنهت وسن كلامها ، استأذنته في الذهاب قائلة بأنها سوف تتجه صباح يوم الغد حتى تلغي طلب اشتراكها في المسابقة .

في المساء ، اتجه أسام إلى أمه بدل الذهاب إلى البيت ، أحس بحنين لرؤية الأسرة ، لحمل بنات أخته ، واللعب معهن .

احتضنته أمه عندما وقعت عيناها عليه قائلة : إنك تطيل غيابك عنا يا بني ، لقد وافقنا أن تعيش حياتك الشخصية بشكل مستقل عنا ، لكن لاتنس حقنا في رؤيتك على الأقل مرة كل عشرة أيام ، وكذلك حق هذا البيت أن تنام فيه
- أضعف الإيمان - ليلة كل شهر .
نحنّ إلى رائحتك بيننا يابني .
ثم أضافت والدموع تنهمر من عينيها : أسام ، ليست لدي أمنية بقوة أمنيتي أن أراك متزوجاً ، ثم أراك أباً ، هل تخيلت كم أنني سأكون محظوظة في هذا العالم عندما تدخل مع زوجتك وأولادك رحاب هذا البيت .
الزوجة الصالحة سوف تريحك كثيراً من عناء المعيشة ، إنك تحتاج لامرأة تشاركك الحياة ، وتكون أنيستك في ليالي الوحدة ، ولا تنس أن تربية الأولاد رسالة سامية يتيح لك الزواج أن تؤديها .

بات تلك الليلة في البيت استجابة لرغبة أمه ، وفي صبيحة اليوم التالي ذهب إلى العمل .
عندما بلغت الساعة الحادية عشرة ظهراً ، اتصلت به (وسن) وأخبرته عن ذهابها إلى السجل المدني ، وسحب تسجيلها في المسابقة .
أحس بأنها صدقته القول ، وأنها بالفعل كانت في مأزق جعلها تضطر لفعل ما قامت به ، ثم إنّها في العشرين من العمر ، وليست ثمة معضلة كبيرة إذا وقعت في خطيئة كهذه بحسن نية .
سألها بشيء من مزاح : لكن كيف حصلت على رقم هاتف المحل ؟

أجابته : عندما خرجت ، تذكرت أنني لابد أن أتصل بك غدا حتى أخبرك أنّني وفيتُ بعهدي ، وعدتُ لأطلب منك رقم الهاتف ، عندها أوقفني المعلم شمو سائلا عن سبب عودتي ؟

قلت : حتى أحصل على رقم هاتف المعلم .
قال : ألا تعرفين القراءة ؟
تعجبت لسؤاله وقلت : أعرف
قال : انظري إلى الأعلى .
رفعتُ رأسي ، فوقعتْ عيناي على اللائحة الأمامية للمحل ، فأخذت رقم الهاتف منها .

شكرها على الاستجابة ، وأعلمها أن البطاقة وصلت إلى صاحبتها ، ثم أخبرها رغبته حتى تكون صديقة لعائلته ، وعندئذ سوف تقوم أخته / حبيبة روحي / بزيارتها في البيت ، وتتناول فنجان قهوة لديها .
رحبت قائلة : بل هو شرف لي يا سيدي ، دعوتي لها ، ولمن يأتي معها مفتوحة في أي وقت تشاء لتناول فنجان قهوة ، وقطعة (كاتو) أيضاً .

في الأسبوع القادم عاد أسام مرة أخرى لبيت أهله طالبا من أخته كي تقوم بزيارة هذه الفتاة ، ثم تبدي وجهة نظرها إن كانت مناسبة لتصبح زوجة لأخيها ، لأن النساء بالنساء أدرى كما تقول أمه دوما .

هذا الخبر أسعد حبيبة روحي التي اتجهت عصر اليوم التالي إلى (وسن) في بيتها .
قالت بأنها تريد التعرف إليها بعد أن تحدث أسام عنها طويلاً ، وبدأت بين حين وحين تسألها بعض الأسئلة الخاصة والعامة .
كانت وسن تجيبها ، و تسألها عن أخيها ، عن طباعه ، عن سبب تأخره في الزواج .
بدت حبيبة روحي سعيدة بتلك الأسئلة وتجيبها .
في السابعة والنصف كان أسام يقف أمام باب البيت بحسب الاتفاق ليعيد أخته ، وكانت الفرصة الأولى ليرى أبويها ، ويتعرف على أختها الوحيدة (ظلال) .
كان أسام ينتظر هذا اللقاء بتوق شديد ، لأن رأي أخته يعني له الشيء الكثير في أمر كهذا ، ولذلك اتجه بها إلى بيته حتى تستريح ، وتتحدث على مهل .
قالت حبيبة روحي أنها مقتنعة بالفكرة كخطوة أولى ، ويبدو أنها من أسرة متواضعة تبحث عن الستر ، وهو بحاجة إلى امرأة (بيتوتية) كهذه ، تكون سيدة بيت بامتياز .

أمضى أسام بعض الوقت يسأل عن سيرة أسرتها بطرق غير مباشرة ، وبعد نحو شهر من ذلك أجرى اتصالاً هاتفياً معها من متجره قائلا : أرجو أن نلتقي في مكان عام حتى نتحدث عن شراكة العمر يا سيدتي .
كانت وسن على معرفة بذلك رغم أن حبيبة روحي لم تتحدث معها بأمر مباشر كهذا ، لكن يبدو أن الأمر أخذ المنحى الجدي كما دار بخلدها .

رحبت بفكرة اللقاء ، وطلبت أن يتأجل ذلك عدة أيام ، لأن خالتها المتزوجة في تركيا منذ ثلاثين سنة موجودة مع زوجها وأولادها في زيارة لاتحدث إلا نادراً .

قالت : أذكر أنها زارتنا آخر مرة قبل نحو ست سنوات ، في السنة الماضية ذهبتْ أمي إليها وأمضتْ شهراً ، ولا أعرف كيف أقنعتها بهذه الزيارة ، إنها أختها الوحيدة ، وشاءت الظروف أن تتزوج مصادفة من أحد أقرباء زوج عمتي الأتراك عندما كان في زيارة لها ، ورأى خالتي هناك .

ثم أضافت : كان من المفترض أن تنتهي إجازتهم البارحة ، لكن أبي ذهب إلى المحافظة ، ومدّد الإجازة خمسة أيام أخرى ، لا أظن بأنني أستطيع الخروج من البيت قبل عودتهم ، ألا ترى معي ذلك . ثم أضافت : ظلال طفلة لا تستطيع القيام بواجب الضيافة .

قال : ما الذي منعك من إكمال الدراسة ؟

قالت : رسبتُ في البكالوريا ، ولم تعد لدي رغبة لإعادة المرحلة ، خاصة عندما بدأ وضعنا الاقتصادي يتردى نتيجة إصابة أبي .

حتى الآن أبحث عن فرصة لوظيفة ، لكن لاأجد .

الأعمال في المحلات الخاصة لاتعجب أمي ، إنها لاتسمح لعملي في أي مكان غير وظيفة رسمية .

بعد قليل من الصمت تناهى صوتها : وأنت يا أسام ؟

قال : كان ذلك بسبب رغبتي لأن أصبح من رجال التجارة ، و هذا الذي حدث .

أحس أسام بأن الوقت مناسب لحديث جاد وعميق حول فكرة الزواج ، فلم يتردد من التعبير عن رغبته للاقتران بها بشكل مباشر .
طلبت منه وسن أسبوعاً حتى تفكر جيداً في هذا المطلب ، وبعد ذلك تستشير أبويها .
رأى بأنها على صواب ، ولديها الوقت الكافي للمزيد من تفكير جاد حتى تبلغ القرار الذي تراه مناسباً في أمر مصيري وانتقالي كبير كهذا ، وقال إنه يعتقد بأن المرأة يمكن لها أن تحدس ربما بشكل أدق من الرجل بأن الحياة الزوجية مع هذا الرجل سوف تكون آمنة ، أم محفوفة بالاضطرابات ، وهو سوف يكون واثقاً بأي قرار تصل إليه .

إنها المرأة التي ظهرت لتكون شريكة للمرحلة القادمة من حياته ، المرأة التي تجعل منه كائناً اجتماعياً ، تجعل منه زوجاً ، وأباً ، وجداً .
لذلك عندما ينظر إليها ، لايملك غير أن يكن لها الاحترام .
سوف تكون زوجته ، وهذا يختلف كل الاختلاف عن أي امرأة خبرها ، أو عرفها مهما كانت درجة القرابة بينه وبينها .

بعد مرور أسبوعين على ذلك ، أجرت وسن الاتصال المرتقب وأخبرته موافقتها ، وموافقة أبويها إذا تقدم إلى خطبتها في أي وقت يشاء .

*　　　*　　　*

هاهو الزواج الذي وقف على الباب أخيراً يا أسام ، ويستأذنك الدخول .
لم يتأخر كثيراً ، فبعد مرور شهر ذهب مع أمه وأخته ، وزوجها
(ديكران) إلى بيتها طالباً إياها للزواج بشكل رسمي .

كانت الأمور ميسـرة ، وأبدى أبوها السيد (طيفور) سعادته بهذه القرابة
التي أمل أن تكون فاتحة خير وبركة بين العائلتين .

لم يدم الأمر طويلاً ، لأن غالبية التجهيزات المنزلية كانت موجودة في البيت ، فقط أعاد طلاء الجدران ،وأجرى بعض المظاهر الأنيقة حتى يبدو بيتاً جديداً لعروسين يقبلان على فتح باب حياة زوجية ، وخلال شهر من تلك الزيارة كانت وسن زوجة في بيته .

انفتح أسام على وقائع جديدة في الحياة الزوجية لم يكن له عهد بها ، وكانت وسن مريحة ، قليلة المطالب ، غير ملحّة ، لكنه كل سنة يأخذها للسفر وقضاء شهر خارج البلاد حتى تتعرف على بهاء العالم ، وهي التي لم تخرج من مدينتها البتة ، إضافة إلى أنه يأخذها كل صيف لقضاء عشرة أيام في إحدى المدن الساحلية .

كان يشعر أن عليه منحها محبته وعنايته ، وهي المرأة التي انتظرها طوال كل هذه السنوات حتى تشرق على حياته ، و تكون سيدة بيته ، وتقاسمه حلو الحياة وعلقمها ، فيشعر بأنه مع كل احتفال بمرور سنة جديدة على زواجهما يزداد مودة لها .

مضت إيقاعات العلاقة الزوجية نحو السنة التي خلعت فيها ثياب الربيع الخامس ، وازدانت بحلة الربيع دون أن يستجد أي أمر بخصوص الإنجاب رغم سفرهما للعلاج ثلاث مرات إلى خارج البلاد .

كانت لديه رغبة شديدة ليرى زوجته تحمل في بطنها طفلا كالنساء اللواتي يراهن كل يوم يمشين برفقة أزواجهن في طرقات المساء دون أن يلمح لزوجته بهذه الأمنية حتى لايجرحها ، وهو الذي يدرك أن الأمر خارج عن

إرادتها ، ويصغي أحياناً لحديث نفسها الذي يطول في جلسات المساء ، وهي لاتكاد تترك دعاء تدعو به حتى يرزقها الله ولدا .

لكن ذلك لم يعجب أمه وأخته ، ورغم أنهما كانتا تتدخلان بالتلميح ، إلا أنهما صارحتاه ليتزوج مرة ثانية لعله يُرزق بأطفال .

قالت أمه بأنها مستعدة لاختيار زوجة مناسبة له ، وطلبت أن يبقى على مودته لزوجته الأولى ، وعليها أيضاً ألا تكون أنانية وتحرمه من نعمة الأبوة ، كما تحرمها نعمة رؤية أحفاد لها من ابنها الوحيد .

عندما زارتها أختها من أبيها / سمرقند / منذ نحو ثلاثة أشهر قالت بأن ابنتها لاتمانع أن تكون زوجة ثانية لابن خالتها أسام إذا تقدم إليها ، فهي كانت ترغب فيه قبل أن يتزوج من وسن ، وحتى بعد زواجه ، فهي ماتزال على موقفها إذا كانت لديه رغبة فيها .

بعد أيام فاتحت تاج ابنها بالأمر ، لكنه رفض الفكرة .

قالت وهي تحدجه بنظرات مركّزة : أنت وحيدي يا أسام ، لاأحد لي غيرك ، أريد أن أرى أولادك ، لماذا تحرمني من هذا الحق .

لقد أنعم الله عليك بنعمة المال ، وأنت قادر على إعالة زوجتين ، أما وسن فسوف تعيش في عيوننا .

ألقى نظرة إليها ، لكنه سرعان ما أزاح نظره عن وجهها ، وراح ينظر في عقد الخرز الثمين الذي اعتادت أن تتحلى به ، وهو عقد اشترته بثمن يضاهي وزنه ذهبا ، اشترته بعد أن شعرت بالغنى وهي تقول : (إن الله يريد أن يرى أثر نعمته على عبده) .

ينظر إلى حبات الخرز الكبيرة وكأنه يعدها حبة حبة حتى أنهت حديثها دون أن يعقب عليها بكلمة .
عندئذ علمت وسن بما تنوي حماتها ، فبدأت وهي مستلقية بجانب زوجها تحس بمياه تتسرب إلى فراشها الزوجي .

بعد ستة شهور من قلق واضطراب وأحلام ليلية مزعجة ترى فيها بأنها تُطرد من بيتها عائدة إلى أبويها ، تتخيل بأنه قرر الهجرة مع زوجته الجديدة ، تتخيل أن أمه تأتي إلى بيت ابنها ، و تطردها قائلة : لانحتاج إليك في شيء ، زوجك رحل عن البلاد ، لاتوجد بيننا وبينك صلة ، وليس هناك أفضل من العودة إلى أبويها بالنسبة لامرأة في وضعك هذا .
راودتها أفكار غريبة تراودها أول مرة ، تتخيل أنها عانس ، تتسول لقمة العيش بعد وفاة أبويها وزواج أختها الوحيدة ، إنها تنام على قارعة الطريق ، تتحول إلى امرأة مهوّسة ، لاأحد يُدخلها بيته .
ثم تتقلب إلى الجهة الأخرى من سرير النوم ، وتتخيل بأنها لاتسمح بحدوث ذلك ، تتخيل أنها تصبح غنية يحتاج إليها الجميع .

في الصباح ، لفتت نظرها زجاجة الدواء المقشّع الذي يستخدمه .
نظرت إلى الزجاجة ملياً ، ثم خرجت بعد تفكير عميق من البيت متجهة نحو صيدلية في أحد الأحياء الشعبية .
أخذت زجاجتين من ذات الشراب ، ثم اتجهت إلى صيدلية أخرى في حي معاكس ، وأخذت كذلك زجاجتين من الشراب نفسه .

عادت إلى البيت مضطربة ، أفرغت سمّاً في الزجاجات الأربع على عجل .
أعادت غلقها بشكل جيد كما كانت ، ثم عادت إلى ذات الصيدلية قائلة بأنها أخذت عن طريق الخطأ زجاجتين ، وهي لاتحتاج إلا لزجاجة واحدة ، فوضع الصيدلاني الزجاجة موضعها ، وأعاد ثمنها ، ثم عرجت إلى الصيدلية الثانية بذات الحديث .
عند الظهيرة ولدى عودته من المتجر هيأت نفسها لتعطيه الدواء في موعده قبل تناول الغداء بنصف ساعة .
دخل أسام الحمام يأخذ دشاً صيفياً كعادته ، وعاد يجلس على الأريكة وزوجته حاملة زجاجة الدواء .
لفتت نظره بارتباكها ، تفرسها بنظرات عميقة ، فغدت ترتعد كورقة على وشك السقوط من شجرة مرتفعة .
لبث ناظرا إليها علّه يسمع شيئاً تقوله في سرها ، فأدرك بأنها في وضع لايسمح لها حتى قول كلمة في سرها ، إنها تترقب حدثا ما ، هذا ما خبره خلال تجاربه السابقة .

أفرغت قليلا من السائل في ملعقة متوسطة بيدين مرتعشتين ، وهو ينظر إلى حالة الارتباك التي تهيمن عليها .
عندئذ رُن جرس الهاتف لتنتفض وسن مع الرنين وكأن صاعقة من السماء وقعت عليها بغتة .
مد أسام يده إلى السماعة ، تغيرت ملامحه ، تلعثمت به الكلمات ، وهو يتحدث بجدية دون النظر إلى وسن الواقفة بجانبه حاملة ملعقة الشراب .

في تلك اللحظات الرهيبة ، راودها إحساس مباغت بأن أمراً غريباً قد حدث .
هل يعقل أن الصيدلاني باع الدواء لشخص وقضى نحبه ،
هل يعقل أن أحدهما قد تعرف عليها ، وأخبر الشرطة بعنوانها .
ثم هل يعقل أن أحدهما اتصل بأسام قائلاً بأن زجاجة المقشع تحمل سمّاً ؟!

أحست بأنها لم تعد قادرة على حمل الزجاجة ، وهو مايزال يصغي للحديث الهاتفي الذي من المؤكد أنه يحمل نبأ سوء ، فوضعتها على الطاولة ، ثم اتجهت إلى المطبخ ، وقد تلبستها حالة هلع ، أفرغت الملعقة في المجلى ، وعادت إليه ، وهو يغلق السماعة .

انتبهت للتو إلى حجم الجريمة التي كانت على وشك ارتكابها ، وكان من الممكن أن يكون زوجها مستلقياً على الأرض دون حراك في هذه اللحظة لولا هذا الاتصال المفاجئ الذي جاء في وقت كهذا .

لفتت حالة الهلع الصارخة في هيئتها نظر أسام ، وغدا يحدث نفسه بغرابة : أمعقول أن حدسها قد أنبأها بشيء كهذا ؟!

تذكّر بأنه قرأ ذات يوم بأن حدس المرأة ينبئها بأمور وقعت للتو ، أو هي على وشك الوقوع ، وهي تتمتع بحدس متقدم أكثر من الرجل .

رفع رأسه يتأمل اضطراب حالها ، وقد انتصب واقفاً على قدميه .

في تلك اللحظات بدأت كلمات خافتة تتناهى إلى سمعه ، وهو يمعن النظر في وجهها : لابد لي أن أوزع لحم عجل على الفقراء ، لأن الله أنقذ زوجي ، لابد من معرفة الذي اتصل للتو ، وبفضله نجا زوجي ، كم أنا نادمة ، وسأبقى نادمة حتى اليوم الأخير من عمري ، لكن يازوجي أعدك بأنني سأفعل كل

شيء لإسعادك ، بل وكعقاب لي لعل الله يغفر لي خطيئتي ، سوف أعينك لتتزوج وتنجب أطفالاً ، وسأكون خادمة لك ولضرتي لعل الله يعفو عني .
هزّت رأسها متسائلة بنبرات مضطربة : ماذا حدث يا أسام ؟
راح يتناول ثيابه دون أن يتكلم طالباً إليها ارتداء ثيابها حتى يذهبا إلى بيت أهلها .
قالت : ما الذي تقصده يا أسام .. لِم سنذهب إلى أهلي في وقت مفاجئ كهذا؟!
قال : زيارة عادية !
قالت : لم نتغد بعد !
قال : سنمضي اليوم بلا غداء.

ركبت السيارة ، وبدت فاقدة التركيز على أية فكرة قد تخطر لها ، لكنها لمحت بأنه غير متجه نحو بيت أهلها ، عندذاك قال بأنهما متجهان إلى المشفى لأن أختها (ظلال)الطالبة في البكالوريا نُقلت للتو إلى المشفى بسبب اصطدام سيارة بها ، وهي تنزل من (سرفيس) النقل الداخلي متجهة إلى البيت .
قال : كانت أمك تتحدث من المشفى ، وتطلب أن نحضر فورا .

هذه العبارة أزاحت كل تلك الحالة التي لبستها ، وغدت مرة أخرى تشكر الله الذي أنقذها من ارتكاب جريمة كبرى بحق زوجها ، ثم مالت إليه تقبله وكأنه كان مسافراً منذ عشر سنوات وعاد للتو .
في تلك اللحظة تزحلقت من حنجرتها عبارة شديدة الجدية بصيغة أمر :
خذني الآن إلى صيدلية سوف أرشدك إليها .

مال إليها مستغرباً ، وقد تلعثمت الكلمات في فمه : لِم الصيدلية الآن ، وأختك بين الحياة والموت ؟
قالت بريق جاف هذه المرة : سوف نلحق بأختي يا أسام ، لكن هل نلحق بالصيدلية قبلها ؟
كانت ترغب في العودة في أقصى سرعة حتى تعيد الزجاجتين المسمومتين وتقذفهما في أقرب حاوية قمامة .
اضطر أسام للعودة أمام إلحاحها ، لكن الصيدلية كانت مغلقة ،
عندئذ وتحت إلحاحها أدار عجلات السيارة نحو الصيدلية الثانية التي كانت محكمة الباب .
اشتعلت الوساوس في رأسها مع استدارة السيارة سالكة طريق المشفى .

عندما توقفت عجلات السيارة بمحاذاة المشفى ، قفزت صورة أختها الجريحة إلى مخيلتها للتو ، وأدركت بأنها قادمة لتطمئن عليها ، وخمّنت في تلك اللحظة بأنها فارقت الحياة ، ومن جهة أخرى خمّنت أن شخصاً ما قد ابتاع الشراب المقشّع ، وبدل أن يشفى ، لقي مصيره المحتوم .
نظرت إلى زوجها بشحوب وصرخت : ظلال .. ظلال .. ظلال ماتت يا أسام.

كانت ظلال قد دخلت غرفة العمليات لدى وصولها المشفى بسبب نزيف داخلي، لم يكن في ردهة المشفى غير أسام وزوجته وأمها بانتظار انتهاء العملية التي استغرقت ثلاث ساعات .

عندئذ اضطرت وسن للبقاء مع أمها في المشفى قُرب أختها ، واضطر زوجها للبقاء أيضاً حتى المساء ، فأخبرته حماته بأن عليه الذهاب إلى حميه المريض في البيت ، ويطمئنه على صحة ظلال لأنه على علم بالحادث عندما جاء أحد الجيران يبلغهما الخبر ، وكذلك يبيت معه حتى الصباح ليعود ثانية إلى المشفى علّ ظلال تكون قد تحسنت .

عند أمسية اليوم التالي وفي العاشرة ليلا كانت عناصر الشرطة في المشفى لإلقاء القبض على وسن لأن الصيدلاني في الحي الأول الذي أخذت منه الدواء كان على معرفة بزوجها ، وكان على وشك أن يخبرها بذلك ، وكي تبلغ سلامه إلى أسام الذي تعرف إليه منذ نحو سنتين عندما سافرا معاً إلى العاصمة ، لكن دخول مريض بدا عليه الإرهاق بشكل سريع في تلك اللحظة الأخيرة حال دون ذلك .
استطاع هذا الصيدلاني أن يتذكر جيداً بأنها هي التي أخذت زجاجة الدواء صبيحة البارحة ، وأعادتها بعد نحو ساعة ، وعند ظهيرة هذا اليوم باع العلبة ذاتها إلى مريضة .

قال ذلك أمام اللجنة الطبية التي كشفت على الدواء ، وحضرت برفقة عناصر الشرطة إلى الصيدلية ، لكن اللجنة راحت تكشف على باقي الزجاجات دون أن تعثر على أي أثر للسم فيها ، وفي أثناء ذلك تلقت الشرطة بلاغاً بوجود حالة وفاة مماثلة لرجل بسبب تناول الشراب ذاته في حي آخر .

هنا تشابه حديث الصيدلاني الثاني مع الأول بأن امرأة قد أخذت علبتين ، وبعد نحو ساعة أعادت علبة قائلة بأنها أخذتها عن طريق الخطأ ، كما أن الصيدلاني الثاني تعرف على وسن عندما رآها في قسم شرطة المدينة .

في تلك اللحظة استطاع أسام أن يتعرف على الصيدلاني الأول ، فدنا منه قائلا : ماذا حدث ياحكيم ؟

قال : يبدو بأن الشرطة تتبيّن في الأمر .

في اليوم التالي ومع إظهار الأدلة ، اعترفت وسن بما قامت به قائلة بأنها وقعت ضحية وسوسة خطرت لها : لقد ظننتُ بأنني أدفع عن نفسي الأذى .

عندئذ حضر شرطي برفقة أسام من أجل أخذ الزجاجتين من بيته ووضعهما ضمن ملف هذه القضية .

لبث أسام في البيت وكأنه نجا من حادث سير ، ثم كأنه نجا من حريق ، ثم كأنه نجا من غرق في يم .

*   *   *

قالت له راشدة وهي تطل من شرفة بيته على الشارع : لكن لماذا لاتحسب أنك كنت طيرا في قفص ، وفجأة امتدت يد ، وأطلقت سراحه .

لبث أسام نحو نصف ساعة متأملاً دون أن تعكر عليك صفو تأمله ، ثم قال : إننا نتعلم ياسيدتي .

بعد نحو عشر دقائق صمت قالت معقبة : العبارة الأكثر دقة : أننا نتذوق لذة التعلم .

هاهي امرأة تسعى بكل جهدها لتخفف عنه هول ما تعرض له ، لكن هل سيجرؤ على مصارحتها بما يعانيه خلال ربع قرن من الزمن ، وهل ستستطيع أن تقدم له شيئاً مجديا .
تتمتم له نفسه مرة أخرى :
بعد حديث طويل عن جوانب مثيرة من حياتك فوجئتَ بها تريد بشيء من إلحاح أن تتحدث لها عن بعض معتقداتك .

أغمضت عينيك ، ورغبت الخروج من الأفكار التي راودتك ، الحديث عن أمور أخرى قد يخفف عنك هول الأفكار عما تعانيه ، وتسعى ما بجهدك للتخلص منه .
طال بك الصمت دون أن تنبس الحكيمة بحرف واحد ، فقلت : هذه وجهات نظر شخصية .
لبثتْ تنظر إليك منتظرة أن تجيب عن سؤالها ، تكهنتَ بأنها ربما تود معرفة أمر يعنيها ، فقلت :
كانت أمي عندما تشعر بشفاء شخص على يديها ينتابها إحساس عميق بأنها تقوم بعمل له قدسيته ، رغم أنها كانت تقبض مالا .

بعد ثلاث سنوات من ذاك الحادث نصحتني أن أذهب إلى أهل المرأة الضحية ، وإلى أهل الرجل الضحية , وأقسّم المبلغ الذي كنت أوصيت به لـ وسن بينهما . قالت لي بأن هذا المبلغ أصبح من حقهما بعد أن سقط من حق وسن .

ثم نظرت إلي قائلة بحزم ، وهي تجهم وجهها : أقل ما يمكنك فعله هو أن تقوم بما أنصحك به .
في اليوم التالي جاءتني إلى البيت هادئة بعض الشيء ،وقالت : عندما تتخلص من هذا المبلغ سوف تشعر براحة .
مضى أسبوع على هذا الحديث حتى رأيتني أطرق بابَي الشخصين ، وأقدم لورثتهما تلك القسمة .

- لاأخفي عنك ياحكيمة بأن ذلك خفف عني شيئا من الاحتقان ، أحسست بأنني عملت عملا مجديا ، لأنني كنتُ سببا في ذلك سواء اعترفت بهذا أو لم أعترف ، إضافة إلى أنني أطعت أمي ، وهذا أيضا عمل جيد . ألاترين ذلك ؟

- هي أنصبتك في ذاك الموقع في غفلة منك
- ما أزال أقف على حالة الغموض وأنا أتخيل شخصا يقدم على قتل شخص ، أكاد لاأصدق هذه الحقيقة .

بدت أمامك في حالة إنصات تامة , هذه الحالة التي جعلتك تردف بكثير من حذر وكأنك تعوم في مياه محفوفة بالمخاطر :
الإنسان ليس بوسعه أن يعيش بشكل سوي ويتمتع بدفء اجتماعي , وتكاتف إنساني إذا خلت حياته من حرمات , وخطوط حمراء .

هزت رأسها هزات خفيفة

- هناك ضوابط نراها حتى لدى أفتك الحيوانات المتوحشة .
استمرت هازة رأسها ، كأنها في أرجوحة
استأنفت : هذا الحيوان البالغ الشراسة لا يتخلى عن واجبه في إطعام مولوده , ثم إنه لا يقدم على افترس هذا المولود .
استكانت بوجهها على صفحة كفها ، وهي تتسع بحدقاتها إليك : حتى الطيور الواهنة تقوم بتأمين عش آمن لها تأوي إليه حرصا على حياتها .
أحسستَ برغبة في الصمت ، وبعد نحو خمس دقائق من السكون عدت إلى حديثك وكأنك لم تنقطع عنه : يمكن أن تنظري إلى أشكال الانضباط حتى في حياة النبات ، والمياه , والتراب .
فأنتِ عندما تقومين بتلويث مياه في حفرة أو في إناء ، فإن هذا الماء يقوم بمحاولة التخلص من التلوّث ، ولا يهدأ قبل أن يعود إلى صفائه .
مهما أردتِ أن تغيري من ألوان الأشجار , أو بقطع أغصانها , أو حتى بترها من الجذع , فإنها تعود إلى ما كانت عليه .
يتخيل تلك الوقائع ، فتستأنف نفسه الحديث :

جلستْ راشدة على الأريكة , فرحت إلى المطبخ تحضر لها فنجانا من القهوة , تناهى صوتها إلى المطبخ : لتكن مغلية بشكل جيد حتى تملأ رائحتها البيت كله .

وأنت تغلي القهوة راودك إحساس بمتعة أن يقوم المرء بتكريم شخص يستحق هذا التكريم .
راودك إحساس بأن عليك فعل أي شيء كي تُشعر هذه المرأة بأنك تقدّر عنايتها بك .

كترنيمات موسيقى غارقة في سحرية العذوبة ،،
كرقرقـة مياه تستأنس في سكينة النقاء ،،
كجسد تعلوه شامـة فـي قمــة رونقـــها ،،
كحلم آخر سكينة ليل يستقبل رحاب غسق أزلـــي ،،،
تطل من ملء النافذة المقابلة امرأة كأنها تتمتع بشيء من خاصية لاتتمتع بها غيرها .

عندما عدت ، ملأت لها الفنجان , واكتفيت أنت بكأس من ماء جوز الهند , ولاتدري لماذا انتابتك نشوة ، وأنت تقدّم الفنجان لجمالية أناملها .
حتى الأنامل تبدو زهوراً في ربيع الكف ، وهي تتناول الفنجان ، تستغرق في النظر إلى يديها ، تكتشف لأول مرة كل تلك اللمسات الجمالية .
لم يسبق لك أن رأيت يدين جميلتين كيديها ، لم يسبق لك أن رأيت أنامل متناسقة كأناملها .
امرأة مجرد الجلوس بقربها يحقق نشوة ، مجرد رفع العينين لخديها ، يُطرب شغاف الفؤاد ، وأي موسيقى عذبة هذه التي تنبعث من نبرات صوتها ، من صمتها ، من نظراتها ، حتى من رشفة تناول القهوة وأنت تركز نظرك على حركة الشفتين الناعمتين ترتشفان القهوة .

وكأنك للتو تدرك كم أن الحياة غنية ، وأن الذي يظن بأنه بلغ كل شيء فيها ، يظن بأنه رأى كل شيء ، لايكون قد بلغ شيئاً البتة ، لايكون قد رأى شيئاً البتة .

أحسستَ في لحظةٍ بأنها ربيع كامل مختصر في كائنٍ بشري وديع , واستطعت أن تدرك ربما لأول مرة ثراء الأنوثة , وأن أي موضع مهما بدا مهجوراً ومظلماً ، فإنه يزداد امتلاءً وإشراقاً بحضور عذوبة الأنوثة .
المرأة عظيمة , بَيدَ أنّها تزداد عظمةً إذا استنارت بعذوبة الأنوثة .
تَمتَمتْ وما تزال آثار رشفة القهوة على لسانها : هل تشعر بأنك إنسان ناجح ياأسام ؟

- : النجاح يكمن في مدى مقدرتنا لتذوّق الحياة , ومدى مقدرتنا في تقديم أعمال متقنة , حتى هذه القهوة كان علي أن أبذل جهداً كي لا أفشل في إعدادها , حتى طريقة تقديمها إليك كان عليها أن تكون لائقة وتحمل جمالية تليق بحجم احتفائي بحضورك في بيتي ، وزيارتك الشخصية لي ، عليها أن تعبّر عن ذلك .

النجاح يا سيدتي هو الذي يحقق راحة النفس , وهذه الراحة تأتي وفق مراحل متعدّدة .

كانت صامتة تتأمله ، وهو مستغرق في شروده ، وكانت ثمة دموع أخذت تتلألأ على أنوار خديها كحبات لؤلؤ .
ولا يدري كيف انتبه إلى ذلك ، راوده إحساس بالتأنيب لأنه تركها وغدا يشرد بالأفكار التي دهمته .
تناول شربة أخرى من ماء جوز الهند وقال وهو ينظر في عينيها : أحتاج إلى حديثك يا سيدتي .

هناك كانت المفاجأة التي لم تكن تتوقعها عندما تحدثت لك عن وقائع حياتها الشخصية , صارحتك - وهي تحدق في عينيك بحذر - بأنها لم تعرف حضن الرجل حتى ذاك العمر, لم تعرف لحظة واحدةً من الحب , لم تشعر بأنها عاشت يوماً واحداً بسعادة .

للتو اكتشفت شيئاً جديداً في عالم العيون ,
اكتشفت لذة عناق النظرات .
كانت تنظر إليك , وكنت بين حين وآخر تقول شيئاً لتنظر إلى نظراتها إليك , ولم تكن النظرات وحدها أبدا ,
كانت الحواس كلها ,
وذرات الجسد كلها ,
ونبضات القلب كلها هي التي تعانق تلك النظرات السحرية الفائضة .
في لحظة أحسستَ بأنها بدأت تقاوم حتى لاتنهمر دموع من عينيها , حتى نبرات الصوت امتزجت بغصة , وبدأت تبلع ريقها , ثم تتناول جرعة ماء .

بدت النظرات سيدة الكلمات والمشاعر , تنطق بكلمة ، وكل حرف من حروفها يتوارى خلف اللسان , خلف قسمات الوجه .

يتأمل جمالية إشراقة الوجه : ياه .. هل يمكن للإنسان أن يحب ، ويتعلق بكل هذه القوة بإنسان آخر ؟
عندئذ قالت له نفسه : أجل يأسام هكذا يتحول الشوق إلى دنيا جديدة ، وأنت تمارسه مع هذه الكائنة البديعة التي تبدو وكأنها هبطت للتو من عالم آخر .
أجل يمكن لك أن تفعل أي شيء عندما يغلبك الشوق إليها ، عندما تقع عيناك على عينيها ,
تسري في عروقك نفحات وكأنها هبت للتو من تسنيم الجنة .

انتبهتَ في لحظة بأن كفك تود أن تمتد إلى ظاهر كفها . نظرتَ إلى تلك الكف التي تسربت رعشة إليها . رغبتَ فيما لومددتَ أصابع كفك الأخرى لتداعب حرير شعرها .
لكنك استبعدتَ الفكرة ، قمعتَ رغبتك .

قلتَ في سرك وأنت تنظر إليها : رغم كل هذه الخبرة والسفر ولقاءات العمل لم تتعرف على رجل , كيف أمضتْ هذه المرأة حياتها على هذا النحو , هل حقاً يمكن لامرأة بلغت الأربعين لم تسمع أبدا كلمة شوق من رجل , لم يخفق قلبها بود , لم تشعر بأن قلب شخص أخفق ولو خفقة واحدة لحبها ؟!

إنه شعور الحرمان الدائم الذي يلاحقها كشبح , اعترفتْ لك , أو كما ترى أنها صارحتك بأنها وإن كانت تقدم العلاج لمرضاها , بَيدَ أنّهم أيضاً يُقدّمون لها علاجاً عندما تغرق في عوالمهم الأكثر حساسية وإحراجاً ، وتطرح عليهم أسئلة لا تعنيهم بشيء قدرما تعنيها .
قالت : هنا يتحوّل المريض يا أسام إلى طبيب بالنسبة لطبيبه , ويتحوّل الطبيب إلى مريض بين يدَي مريضه .
يبدو الطبيب في لحظاتٍ أمام نفسه ، وهو يريد أن يتعلّم المعرفة والخبرة والحكمة من مريضه , وحتى يرفع الحرج عن هذا المريض يوهمه بأن تلك المعلومات هي لضرورات العلاج .

على هذا النحو من حساسية الحديث المباشر ، تتجنّب أن تسمّي الأشياء بأسمائها في مواقع عديدة , تكتفي بالتلميح , والقفز بين الكلمات دون تكملتها , دوماً تترك فراغات في حديث لا تنهيه .
لم يكن بوسعها أن تقاوم أكثر من ذلك موجة الدموع , وموجة الغصة التي كادت تحتل الحنجرة , وموجة ابتلاع الريق ، فنهضت موحية بأن عليها التواجد في البيت بعد قليل ، ولم تتردد في توجيه دعوة لزيارتها في المنزل .

تخيّل كيف أنه سيدخل بيت راشدة , ياه .. بيت راشدة ، كيف تبدو وهو يحدثها في بيتها .
امتلأ إحساساً بأنه غدا أكثر قرباً منها , وأنها غدت أكثر دنواً منه .

هناك في بيتها القديم الذي ولدتْ ونمتْ وترعرعتْ فيه , ذاك البيت الذي تأبى تركه لأنه يفوح بذكريات عالم كامل يخصها , البيت الذي لا تتخيل لحظة واحدة أن يسكنه غيرها , وكأن الذي يسكنه سوف يطّلع على كل أسرار مراحل الطفولة واليفاعة , كل ما صنعته وتحدثت به في هذا البيت , أجل سوف تروي له الجدران كل تلك الحكايات والأسرار , وحتى الأحلام التي حلمتها .

تظن بأن الجدران تحتفظ بنبرات الأصوات , وقد تحتفظ بأرشيف من الصور أيضاً من خلال الظل , حتى العيادة لم تكن تستبدلها لولا أن صاحب المبنى حصل على موافقة البلدية لهدم البناء القديم ، وإنشاء بناء حديث من عدة طوابق مكانه , وقد تعاقد مع أصحاب المحال بأن يعوضهم ببدائل في البناء الجديد . ورغم أنها لم تكن قد لبثت أكثر من خمس سنوات إلا أنها أحست بأن عالماً من أسرارها وأسرار مرضاها انهار مع انهيار المبنى القديم .

كانت تفضل لو لبثت في تلك العيادة القديمة , ولم تنتقل إلى العيادة الجديدة الأكثر جمالا وأناقة وقيمة .

قالت بشيء من الحزن وهي تودعه : دوماً يا أسام تبهرني الأشياء القديمة ، تتحول أمام ناظرَي إلى تحف لاتعوّض ، لكن الحياة هكذا .. تتغير ، وتفرض علينا أن نقبل بهذا التغيير ولايكون أمامنا إلا أن ننسجم معه .

* * *

بعد ثلاثة أسابيع قرر أن يلبي الدعوة بعد تردد , كانت الزيارة تعني له أشياء حاسمة , إنها مثل السفر الذي يتعرف من خلاله الإنسان على رفيق سفره بشكل أوضح .

عندما وطئت قدماه بيتها في السادسة والنصف مساء ، فوجئ بعجوز تتمتع بلياقة بدنية تستقبله بحرارة وترحاب و كأنها على معرفة مسبقة به .

مع جلوسه وتأملك في سمات وجهها ، اعتراه شعور بأن راشدة نسخة من هذه المرأة .

امرأة تغرق في صمت مهيب ، وكأنها تشرد بحسابات غيبية لاتريد لأحد أن يستكشفها , فقط جسدها كان موجودا .

انتظر نحو نصف ساعة في صالون الاستقبال والعجوز تقبع قبالته دون أن تنبس ببنت شفة حتى حضرت راشدة التي يبدو أنها كانت في الحمّام .

دخلت ، كأنها وردة تمشي على قدمين ، كان الحمام يضفي رشاقة حتى على حركاتها الهادئة وهي تدنو ، وتمد يدها تسلم عليه .
مد كفه مستقبلا كفها وكل ذرة فيه ترتعش نشوة .
لبثت العجوز مكانها ، فأخبرته راشدة بأنها قد لاتسمع شيئا مما يقولانه , وقد اعتادت منها هذه العادة التي لاتريد أن تفسدها عليها , فهي منسجمة مع طبعها, وأحيانا لاترى الناس ولاتخرج من البيت سنة كاملة , بل إنها ترفض حتى مشاهدة التلفاز لأنه فقد عنصر التسلية منذ أن بدأ عصر الألوان فيه كما تقول .
فجأة مال إلى راشدة وهمس : ما اسم أمك يادكتورة ؟
أجابت وهي تحّدق فيها : هتون
عندئذ نهضت العجوز واختفت قليلاً لتظهر ثانية تحمل سفرة عليها دراق وموز وكرز .
سارعت راشدة تخبره بأنها لاتسمح لأحد أن يغير هذا التقليد العريق لديها , فهي مصرة أن تقدم طعام الضيافة بيدها لأي ضيف , أو أي زائر , أو أي داخل هذا البيت حتى لو كان مراقب المياه ,أو الكهرباء , كما أنها لا تأذن لأي داخل أن يخرج دون ضيافة حتى لو كانت حبة ملبّس .
نهض أسام واقفاً على قدميه ، وهو يتناول ضيافته من يدها مقدما شكره للجهد الذي بذلته , فهزت رأسها وعادت تجلس في الموضع ذاته .

بعد نحو نصف ساعة أخرى مدت العجوز يدها إلى صحن الفاكهة الموضوع أمامها , وراحت تقشر موزة , ثم مدت راشدة يدها إلى حبة كرز من صحنها , ومد أسام يده إلى حبة دراق من الصحن الصغير الموضوع أمامه .

أخذ الجو شكل حفلة صغيرة , عندئذ تناهى رنين خافت بلايكاد يُسمع , نهضت راشدة إلى جهاز الهاتف , لبثت دقيقتين تتحدث دون أن تخرج منها نبرة صوت واحدة .

عادت إلى موضعها وراحت تمد يدها إلى حبة دراق .
انتابته رغبة في أن يتعلم من هذه المرأة العجوز شيئا , أن يحاول الدخول في عالمها ولو للحظات قليلة فقال : ياسيدتي أريد أن أعرف إن كنت ترين العالم الآن موحشا أو مسليا ؟

لبثت المرأة في صمتها الغارق , لكنها أوحت بأنها سمعت السؤال وتشرد فيه , ثم بعد نحو دقيقة واحدة قالت : العالم الآن ممتع وبه تسلية , بالأمس كان العالم موحشاً , أعني عندما كان الإنسان يسعى للانفتاح على العالم , ويريد امتلاكه والسيطرة عليه بأي ثمن , ونتيجة هذه النزعات كانت الحروب الكونية والعالمية التي آذت الإنسان وسحقت حتى أحلامه , ملايين الأشخاص دفعوا ثمن تلك النزعات العدوانية , فإن أردت أن تذكر أسماء أولئك الذين ألحقوا الويلات بالناس ، تحتاج إلى ذاكرة أرشيفية .

ثم عادت إلى صمتها للحظات .
مدت يدها إلى حبة موز وبدأت تنزع عنها القشر إلى النصف وشرعت تستأنف : العالم بخير قياسا بعدد السكان , الآن هناك حضارة , وهناك منجزات هائلة ليس بوسعنا نكرانها .

نحن نتقدم كل سنة ما كان يتقدمه أجدادنا ألف سنة .
إنني متفائلة بمستقبل العالم , لن يكون في اعتقادي بوسع الشر أن ينتصر على الخير.
الإنسان تعلم الكثير من أخطائه ومن تجاربه السابقة , ولكنه مازال يتعلم , ومازال يخطئ وهذه ليست مشكلة .
تنتابني مشاعر السعادة لأنني ما أزال موجودة في هذا العالم ، وموجودة الآن بينكما , أستمتع بالجلوس مع ابنتي ، ومع شخص تكن له تقديرا خاصا ، وأظن بأنه يبادلها هذا الشعور وكان من الممكن ألا أكون موجودة في هذا العالم ، ولا بينكما .

إذن ، نحن الآن ثلاثة أشخاص سعداء نجلس معا ، ونتناول الفاكهة دون أي منغصات ، لكن علينا أن نؤمن أيضا بالنكسات , نؤمن بالمراحل الانتقالية التي تمر بها مناطقنا .
عند الساعة الثامنة والنصف ، نهض مستأذنا للخروج .
اتجه على الفور إلى البيت ، مد يده إلى كتاب وبدا يقرأ حتى غلبه النوم .

أحس أسام بأنه ليس أمام امرأة يمكن للمرء أن ينساها عندما يودعها ، امرأة تفرض حضورها ، وكل كلمة قالتها في الذاكرة .
مضى شهر على اللقاء وهو يسعى جاهدا أن يبتعد عنها ، عن هيمنتها على تفكيره .

بيد أنه يدرك عدم نجاحه في هذا المسعى , وربما حتى لا يعتاد اللقاء أخذ التواصل يأخذ شكلا جديدا , فهو عندما يشعر بقوة شوق يلجأ إلى كتابة رسالة طويلة ويرسلها إلى عنوانها في البريد الإلكتروني , واعتاد أن يتلقى كل يوم منها رسالة تنتقي فيها ما تقع على أخبار من المواقع فتزوده بها .
تقول له أنها تفيق كل يوم في الخامسة صباحاً , تفتح عينيها كأنها على موعد مع ملاك يأتي فيربت على كتفها لتستفيق , ولاتستطيع أن تغفو لحظة واحدة بعد ذلك , فعوّدت نفسها على الجلوس إلى الإنترنت حتى التاسعة صباحا , ثم تفطر مع أمها وتنزل إلى العيادة ، لذلك اعتادت النوم مبكرا .

عندما تبلغ الساعة العاشرة ليلاً تكون غارقة في النوم , تلك الساعة التي يبدأ هو بداية سهرة جديدة تطول حتى الثالثة صباحا ، ولن يذهب إلى عمله قبل الحادية عشرة إذا كانت لديه رغبة الذهاب بعد أن أعطى المتجر إلى شخص مقابل نسبة من الأرباح ، هذا الشخص الذي يدير العمل ، ويقدم له كشفا بالحساب في نهاية كل شهر ، وهو أحيانا يختفي أسبوعا دون أن يرى المحل ، يشعر أنه بحاجة إلى بناء علاقات اجتماعية ، لذلك يتردد في زيارة أمه ، يمازح حبيبة روحي ، يداعب أطفالها ، يقدم لهم هدايا ، يذهب أحيانا إلى أقربائه في القرى يمضي أياما ويعود ، يقضي سهرات في محلات عامة مع أصدقائه .

لم تستطع راشدة أن تخفي عن نفسها شعورها العميق بالميل إليه ، لم تخف احترامها العميق لتجاربه وخبرته في الحياة .

في آخر رسالة إلكترونية أرادت أن يتحدث بعض الشيء عن فهمه للحب ، قالت بأنها تحتاج إلى معرفة وجهة نظره عن الحب ، وكيف يمكن للإنسان أن يدرك أنه في حالة حب ، أو في حالة ردة فعل ، أو حتى في حالة بحث عن الحب وهو يميل إلى شخص ما دون غيره .
عند الثانية صباحا وهو يشعر بقوة الشوق ويتخيلها نائمة ، جلس إلى الحاسوب وكتب إليها :
من وجهة نظري يا حكيمة ، عندما يتدخل العقل في مشاعر الحب ، فإنه أول ما يفعل به هو أن يُفقده معناه وقيمته الروحية .

خصوصية الحب تكمن في أنه يحيل الأشياء المستحيلة إلى واقع , يحيل اللاممكن إلى ممكن .
قوة الحب تكمن في مدى قدرته على طرق أبواب اللاواقع وإحالته إلى واقع يعترف به الآخرون وكأنه أمر سحري وخيالي لايملكون إلا الاعتراف الواقعي بحقيقة حدوثه .

في اللحظة الأولى التي يستسلم فيها الحب للواقع ، يفقد ميزته وعذوبته اللاواقعية ، وفي تلك اللحظة يكتشف الشخصان بأن الذي بينهما لم يكن حبا , ويكتشفان بأن الحب النبيل يزداد رسوخا في كل الظروف , إنه القيمة الكبرى التي تزداد تألقا وتعمقا كلما واجه تقلبات الزمن .
في الحادية عشرة نهض , غسل وجهه بماء بارد , أحس بشهية لقطعة حلوى , فتح البراد , غمس قليلا من الخبز في علبة العسل وتناولها واقفا .

*   *   *

خمس جلسات علاجية مركّزة استطاعت أن تقنعه فيها بأن مشكلته الوحيدة التي يعانيها هي أنه يملك حساسية زائدة تجاه سلوكيات الآخرين , وحتى تجاه ما يقع في العالم برمته وأن هذه الحساسية الفائضة عن حدها ، تولّد حالات الوسوسة في نفسه : عليك أن تدرك حقيقة واحدة يا أسام ، وهي أنك لستَ نبيا ، وأنك تعيش في عمق مجتمع إنساني مكوّن من تعقيدات متراكمة عبر ملايين السنين . كل شخص يحمل نسبة عالية قد تبلغ بالبعض أعلى من النصف من العوامل الوراثية الظاهرية والباطنية ، وهو لايملك إلا أن يدور في فلك تلك الموروثات التي ورثها رغما عنه .

أراد أن يقول شيئا ، لكنه لم يستطع العثور على الكلمة التي يبدأ بها الحديث ، راوده شعور بأنه فقد حاسة النطق عندما سعى جاهدا والطبيبة أحست بمعاناته الشديدة ، وفشله في الكلام .

عندما انتهت الجلسة ، نهض أسام وأحس بحاجة شديدة إلى أمه ، تلك الأم الحنون التي صبرت عليه حتى وهو يترك البيت .

عندما أدار عجلات السيارة نحو البيت ، راوده إحساس بأنه يذهب إلى مكان آمن .

دخل البيت عند الواحدة والنصف ظهرا والإرهاق يعلو وجهه . عندما رأته أمه في تلك الهيئة ، هرعت إليه قائلة : مابك يا بني ، لماذا كل هذا الإرهاق ، دع كل شيء واسترح لمدة سنة ، لاتفعل شيئا ، لاتفكر في شيء . أختك سوف توفر لك راحة هنا ، كن معنا يا أسام .

انحدرت دموع من عينيه ، ورمى رأسه على كتف أمه ، فغارت الأم في البكاء ، وقادته إلى حجرتها .

أجلسته في حضنها كما كان صغيرا ، داعبت شعره وغدت تدندن بصوت كسير وهي تهدهده كأنها ليست المرأة العجوز التي تجاوز عمرها أعتاب الثمانين : أنت ابني الوحيد في هذا العالم ، لاأحد لي غيرك ، أنت قوتي ، وأنت ضعفي ، أنت غناي ، وأنت فقري .

منذ طفولتك كنت تعاني حساسية شديدة ، كل شيء انتهى يا بني ، وسن ذهبت في طريقها ، كل يوم جديد بالنسبة إليك هو حياة جديدة .

*　　　*　　　*

هاهو أسبوع آخر مضى ، وجاء موعد الجلسة الجديدة التي يتوق إليها ، وبالمقابل تتوق راشدة حتى ترى أثر تلك الجلسات على مريضها .
عندما جلس أسام على الكرسي قبالتها ، أخذت تنظر إليه لتستجلي الباطن من خلال الظاهر ، فهي موقنة بأن قسمات الظاهر هي خير دليل على معالم الباطن ، وتكون طبيبة ناجحة في مهنتها قدر تمتعها بقوة النفوذ للإطلاع على هذه المعالم تاركة كل مالديها من إمكانات في حالة يقظة ، فهي تستخدم عينيها لتنظرا ، سمعها لتسمع ، عقلها ليحلل ، حواسها لتدرك وتلتقط التحولات الكامنة في عمق أو لاوعي المريض .

أصارحك هنا يا عزيزي بأنك لاتحتاج إلى علاج دوائي بسبب ما أراه من تمتعك بالتحرر النفسي الذي حققه لك السفر ، وكذلك مما رأيت من أناس كانوا يتعالجون عند السيدة والدتك ، وأيضا ما كنت تقرأ من كتبها ،وما تسمع من أحاديثها ، وكذلك تلك الكتب التي قرأتها في ألوان المعرفة ، وما تتمتع به من قوة الشخصية .
إضافة إلى الحرية التي عشتها بمفردك ، وأنت تخوض التجارب ، وتكتشف الحياة دون رقيب .

خيم صمت على المكان ، فأدرك أنها فسحة الاستراحة .

عندما انتهت الجلسة أعلمته بأنها اعتادت أن تسافربرفقة أمها كل سنة إلى إحدى الدول لقضاء إجازة مدتها نصف شهر ، وأضافت قائلة بأنها تنصحه أن يستعين بالسفر للخروج من هذه الحالة ، لأن السفر يوفر له نمطا جديدا من وقائع الحياة الروتينية التي يعيشها : السفر يجدد النشاط والإقبال على حياة جديدة يا سيدي .
فوجئ بهذا السفر ، وتخيل كم أن المدينة ستبدو فارغة دونها ، تخيّل الكآبة التي سوف تخيّم على الطرقات ، وحتى الشارع الذي يؤدي إلى العيادة ، لن يكون بوسعه أن يمد خطوة واحدة إليه .
أصر أن يأخذهما بسيارته إلى دمشق ويودعهما في المطار .
أمام رغبته ، قبلت راشدة ذلك ، وأيضا وافقت أن يأتي بعد انتهاء الإجازة إلى المطار بسيارته ويعيدهما .
عندما انطلقت مع أمها في الطائرة إلى السويد ، عاد أسام إلى مدينته منتظرا أن تمضي الأيام بسرعة .
يلبث مستلقيا على ظهره معظم الوقت ، ورغم أنه لايدخن ، بدا في المساء يدخن بعض السجائر ، ويحتسي بعض الجعة وهو يستمع الأغنيات القديمة متذكرا كل كلمة من كلمات راشدة .

يذهب إلى سوق المدينة ، يتأمل وجوه الناس ، وكم يتمنى أن يتخلص من هذه الحاسة التي تسبب له حساسية مفرطة ، لذلك يتحاشى ما أمكنه النظر إلى

الناس ، واهتدى إلى ارتداء نظارة قاتمة تجنبا من لوم الناس له عندما يتحدث إليهم ويولي ببصره إلى مكان آخر .

يبقى دائم البحث عن شيء يمكن أن يخفف حالة الفصام من هؤلاء الذين يعيش معهم كل يوم ، لذلك يتقصد الانخراط في قاع المجتمع ، يبادر إلى مواقف من شأنها أن تعطي صورة عن جمالية الإنسان الطبيعي الذي يكون منسجما مع نفسه ، ومع الآخرين . يقول لهم بأن الحقيقة هي الخطوة الأولى نحو حالة التوازن التي تحقق لإنسان السكينة .

* * *

عندما اتصلت به راشدة ، وأخبرته أنّها ستكون عصر الغد في المطار ، أحس بأن دهراً ثقيلاً مضى .
عند الساعة السادسة صباحا انطلق متجهاً نحو دمشق ، كانت راشدة قد تغيرت ، والسفر أضفى إليها جاذبية أخرى ، لم يملك نفسه من أن يقبلها ، ثم يقبل يد أمها والدموع تفيض من عينيه .
قال : لم اكن اعلم أنّ العالم سيكون بكل هذه الوحشة دونك
قالت : كيف أمضيت هذه الأيام ؟
قال : في حالة من الهدوء والنوم
قالت : تبدو جيدا كما أرى
أجاب : يبدو لي هذا أيضاً ، الراحة علاج جيد .

بعد أسبوع حلّ موعده مع جلسة جديدة ، فرأت أن تتحدث في هذه الجلسة عن المرأة .
قالت بعد نحو نصف ساعة من جلوسه :
المرأة يا أسام هي رفيقة الرجل ، الحياة بدون المرأة كمن يقف على قدم واحدة .

بالنسبة للمرأة التي عانيت غدرها ، وفي اعتقادي أنك ماتزال ترزح تحت وقع ذاك الحادث الذي وقع لك ، وكان يمكن أن يودي بحياتك ، أقول لك بأن امرأة واحدة ليس بوسعها أن تمثل نساء العالم ، ولاتستطيع أن تعطي صورة عامة عن المرأة . بل هي ذاتها قد تغير مفهومها من ظاهرة ما ، أو من مفهوم محدد .

لقد رأيت نساء سيئات يا أسام , هذا صحيح , لكن تذكّر بأنك إلى جانبهن التقيت نساء فاضلات .
ما يهمك أن تعلمه هو أن المرأة تصر على العفة أكثر من الرجل , لأن ضريبتها هي أغلى وأعلى من ضريبته .
عد إلى النساء اللواتي التقيتهن ورفضتهن , عد بمفاهيم جديدة سوف تجد امرأة صالحة تغريك بالزواج مرة أخرى ,

تكون أنيستك ,
حبيبتك ,
صاحبة بيتك ,
أم أولادك ,
جدة أحفادك .

افهمني جيداً , لاتجعل من نفسك سيداً مطلقاً على المرأة وتغتال خصوصيتها واستقلاليتها .
عندما ترتكب زوجتك خطيئة , ترتكبها وهي كائن مستقل عنك , وتتحمل نتيجة خطيئتها الاجتماعية , والقانونية , والصحية , وحتى الدينية .
هل هي تخافك , أم أنها حريصة على شخصيتها ،على سمعتها ، على موقعها في أسرتها , في مجتمعها .

عالجت في هذه العيادة رجالا كانوا يظنون بأن زوجاتهم لو ارتكبن خطيئة , فسيتحملون هم مسؤولية تلك الخطيئة , كأنهم هم الذين ارتكبوها , وعالجتُ نساء ارتكبن أخطاء فدفعن نتيجة تلك الأخطاء دون أن يلحق أذى بأزواجهن , وعلى العكس , انفتحت أمامهم أبواب حياة جديدة أخرى .

الأب الذي تنقصه الأخلاق , لايُنقص ذلك من شأن بناته , لكن الأم التي تنقصها الأخلاق , يُنقص ذلك من شأن بناتها , الأخ الذي به نقص من أخلاق , لاينقص ذلك من شأن أخوته , لكن الأخت التي بها نقص أخلاقي , ينقص ذلك من شأن أخواتها .
لذلك أنا المرأة , سواء كنت طبيبة , أو ممرضة , أو معلمة مدرسة , أو ربة بيت , أحافظ على عفتي أكثر منك أنت الرجل , لأن ضريبتي في كل المستويات والمقاييس أعلى من ضريبتك في قلب هذا المجتمع الذي نعيش فيه .

وفي الوقت الذي يمكن للمجتمع أن يسامحك , فإنه لايضع حتى إشارة للتسامح مع خطيئتي التي تغدو تاريخا من العار يلحقني ويلحق أسرتي عبر الأجيال .

*   *   *

خرج أسام من العيادة في التاسعة مساء ، وبه توق للسهر في إحدى المطاعم .
أحس بأنه يحتاج لرؤية الماء ، فاتجه إلى مطعم اعتاد أن يضع الموائد على حافة مسبح عائد له في الصيف .
جلس ينظر إلى الماء ، وإلى الناس ، رجل يدخل مع زوجته التي تدفع عربة صغيرة فيها ابنهما الصغير ، عائلة صغيرة تجلس إلى طاولة ، رجل ضخم الجثة يجلس مع شخص صغير الحجم ، روائح الشراب ، واللحم المشوي ، النادل يدوّن طلبات الناس ، عمال يحملون الطعام .

عند ظهيرة اليوم التالي ، ذهب إلى أمه مستحضرا تلك المشاهد التي رآها وعاشها بين تلك الجدران ، مشاهد أناس أصيبوا بالوسوسة ، وكانوا يراجعون أمه ، وكانت تروي على سمعه وسمع أخته (حبيبة روحي) حكاياتهم .

كانت تروي وكأنها تحذرهم من شر هذه الوساوس ، وكانت تلمح لهم بأن هذه الوساوس تستفحل وتشتد كلما استجاب المصاب لها ، وتضعف إلى أن تزول كلما تجاهلها ، وتقول بأن كل أدوية العالم لاتستطيع أن تشفي المصاب إن لم يقتنع أولا بأن ما به هو وهم يشبه خيط دخان يتلاشى بمجرد النفخ عليه .

هل يعقل أنه أصيب بذات المرض الذي كانت أمه تشفي الناس منه ، هل يعقل أن ذاك المرض ترسخ في مخيلته إلى أن أصبح واقعا مع الأيام ، لكنه رغم ما قالته الطبيبة يشعر بأنه أكبر من ذلك ، وأن خبرته في الحياة تجنبه الكثير من تلك الوساوس ، ربما تكون اللامبالاة في تسرب بعض الأفكار إليه خلف شيء من تراكم غير مقصود كهذا ، لكن عليه أن ينظر إلى الأمر بكثير من جدية ، وينظر إلى نفسه في مرآة نفسه ، فقد تقدم به العمر ، وهو يحتاج إلى أن يكون كائنا اجتماعيا ، أجل يا أسام إنها اللامبالاة الزائدة عن حدها ، والتركيز في أمور لاتحتاج إلى تركيز ، ووضع أحداث ووقائع في غير سياقها المكاني والزماني .

يبدو بأن الإنسان مهما تقدم في السن والخبرة والتجارب سيبقى يحتفظ بشيء من المراهقة في أعماقه.

أمضى يومين عند أمه يستأنس ببنات (حبيبة روحي) ، وأحيانا يجلس مع (ديكران) الذي يسرد له بعض أجزاء وقائع حياته ، ثم يضحك قائلا بهمس : لكن يا أسام لاتخبر أختك بهذا ، سوف تطردني من البيت .

بعد نحو عشرة أيام ، أخرج جهاز الهاتف الخلوي يتصل براشدة ليسمع ولو نبرة واحدة من تلك النبرات التي لم يعد قادرا على احتمال لحظة أخرى دونها .

قال فور أن تناهت تلك النبرات إلى سمعه : اكتشفت شيئا أردت أن أخبرك به , اكتشفت اليوم بأنك تشبهين ياسمينة .
صمتت تشرد بعمق في عبارته واكتشافه , تخيلت نفسها للحظات ياسمينة حقيقية على شجرة , لكن من الطرف الآخر بدا التشتت واضحا في نبراتها , وبدت الكلمات تقول عكس ما توحي به النبرات.
لم يشأ أن يستمر في الحديث فشكرها وأنهى الاتصال شاردا بكل كلمة بدرت منها , لكنها بعد خمس دقائق هاتفته برنتين وأغلقت الخط , فأدرك بأنها تريد أن يتصل بها لتقول له شيئا , لتضيف شيئا إلى ما قالته , وسوف تكون مستعدة فيما لو اتصل هو بها , فلم يتردد من إجراء الاتصال , ومرة أخرى أحس بارتباك نبراتها , وأن النبرات ذاتها كانت تقول خلاف ما تقوله الألفاظ , فأغلق الخط مرة أخرى , لكن بعد دقائق معدودة أجرت ذات الاتصال ولم تغلق حتى فتح الخط وصارحته بأنها سعيدة بهذه الكلمات , وهي بالفعل تعتبر هذه الكلمات بمثابة عقد من اللؤلؤ تقدم به إليها ليعبر عن مشاعره نحوها ،

تحدثت كما لو أنها طفلة ، فأدرك مدى حاجة المرأة إلى رجل يحبها ويوليها اهتمامه .
في تلك اللحظات تخيل نفسه عريسا يمسك بيدها ليلة الزفاف , هاهي الحياة تثبت بأنها قادرة على أن تجعل المستحيل ممكنا , هاهي تثبت بأنها قادرة أن تقدم نشوة السعادة , وتجعل الإنسان سعيدا بالفعل , ويشعر ولو للحظة واحدة أن آماله وأحلامه تحققت .
إنه يمسك بيدها ,
أنامله تتشابك مع أناملها ,
تتناهى الزغاريد ,
تتناهى الأغنيات ، وهو ينظر في عينيها تلك النظرات التي طالما اختلسها كي لايراها أحد , بل لاتراها حتى هي .

الآن ينظر إليها ويريد أن يرى الجميع كيف أنهما يتبادلان نظرات الحب السحرية ,
نظرات الحب العناقية ,
نظرات الحب الفائضة بنشوة المشاعر .
يريد أن يراه العالم كله ، وهو يمسك يدها كأنه أتى بها من عالم مجهول , أتى ليكون كله لها , لتكون كلها له .

كان يسمع أحاديث الزواج بعد حب , وكانت الأحاديث عابرة , الآن يدرك قيمة ومعنى أن يتزوج الإنسان بعد علاقة حب داخلية , أن يتكلل ذاك الحب الصامت والمتردد بعقد قران .

شردت في حديثه وبدا لها في لحظة بأنها مريضة وهو الطبيب الوحيد في العالم , تخيلت أنها تزور عيادته , يُخرج مرآته السحرية ويسبر بعينيه الثاقبتين أغوار أسرارها , يكتشف لها ما لم تكن تعلمه عن نفسها .
كان يقول بأن القضية الكبرى التي على الإنسان أن يعمل في سبيلها هي أن يكتسب أكبر مقدرة من السلوك الطبيعي , ويروي لها أنه نجح في مراحل متقدمة في مسعاه , لكن عليه أيضا أن يعمل بجد حتى ينجح في تقديم شيئ مجدٍ لأولئك الذين تربطه علاقات حميمة بهم , لأن الفرد السوي ليس بإمكانه أن يكون سويا في محيط غير سوي , وهنا تتحول طبيعيته إلى عبء عليه , وقد يتخلى عن تلك السوية إذا أخفق في العثور على أشخاص يشاركونه هذه السوية .

إنها معركة حقيقية يخوضها المرء في سبيل أن يعيش حياته بسلام , وبدون منغصات لامعنى لها , وتشرد في حديثه المسترسل بأن ذلك لايعني عدم الحاجة إلى حالات القلق , أو المرض , أو الأمنيات , أو الحلم بما هو أفضل .
الإنسان الذي تلبى كل حاجاته في الحياة ، ستصبح بالنسبة إليه دون قيمة حقيقية .
النساء اللواتي تعرف إليهن بعد وسن لم يستجبن بشكل مقنع لمحاولاته معهن لذلك كان يتركهن .
كان يعتقد أن أفضل وأهم علاقة تصادف حياة الإنسان هي علاقة حب سوية بين شخصين , وتتحول هذه العلاقة إلى أكثر علاقات الكون ألما واضطرابا إذا فقدت روح السوية فيها .

المرحلة تكمن في وجود الإنسان الذي يستجيب لثورة التغيير بعد أن يقتنع أنه بحاجة إلى هذه الثورة في أعماقه , ويحتاج إلى هذا الشخص حتى يساعده .
حتى القبلة عندذاك تأخذ شكلا جماليا وإنسانيا متألقا , حتى همسات آخر الليل وهما يتقلبان على رحابة السرير الزوجي كفراشتين .

كم تمنت أن يسترسل حديثه وهي تذرف الدموع من الجهة الأخرى , لو كانت تقف قبالته ، وهو يتحدث , لتنظر في عينيه , ثم تعانقه .
راودها إحساس غريب بأنها جزء مبتور منه , أنه جبل وهي شجرة في حدود هذا الجبل .

أدركت للتو أن العالم لايخلو من أناس يمكن لها أن تحاورهم , يمكن لهم أن يقدموا زهورا حقيقية بمشاعر حقيقية , ويمكن لها أيضا أن تمد إليهم تلك الزهور دون أي لحظة تردد .

عندما أغلقت السماعة قالت بأنها اليوم في الثانية ظهرا تنتظر زيارة إحدى زميلات دراستها من الجزائر , وهي تقوم حاليا بزيارة القطر للسياحة برفقة زوجها , لقد دعتهما لتناول الغداء في أحد المطاعم الجميلة في المدينة .
عندما بلغت الساعة الخامسة أحس بقلق وهو يتخيلها خارج البيت ,هل عادت , ما الذي وقع , هل ستستضيف ضيفيها ليبيتا عندها في البيت , أم أنهما سيعودان . هل تناولت طعاما نظيفا ومضى كل شيء على مايرام . ترى أين هي الآن ؟

رفع سماعة الهاتف الأرضي واتصل لترد أمها وتقول بأنها خارج البيت .
أحس بقلق بالغ وهو يتخيل بأنها من المفترض أن تكون قد عادت لو كانت الأمور على مايرام . أخرج هاتفه الخلوي واتصل بها ليسأل إن كانت بخير , فقالت بأنها ماتزال تتجول برفقة ضيفيها في أحياء المدينة القديمة : أنت تعرف ياأسام بأنني مجنونة بحب الأحياء القديمة وأريد أن أتجول بضيفَـي في تلك الطرقات .
قال : مازلت لاأعرف ما الذي دفعني للاتصال بك يا سيدتي
قالت : أحقا مازلت لاتعرف ؟
عندما أغلقت السماعة قالت لها صديقتها الجزائرية : سعة الحرية التي تتمتع بها المرأة العازبة هي أوسع مما تتمتع به المرأة المتأهلة في بلاد الشرق الأوسط .
قالت : لكن عندما تشعر المرأة بأن أحدا لايوليها اهتماما , تشعر في تلك الهنيهة بأنها امرأة ناقصة الأنوثة , الرجل هو الذي يجعلها تمتلئ أنوثة , فأراد زوج صديقتها أن يعلّق قائلا ببسمة طفيفة : لا تنسيا أن المرأة هي التي تجعل الرجل يمتلئ رجولة .

وهي تمضي يعتريها إحساس بالأنوثة , إحساس بأن رجلا ما في الطرف الآخر يندفع بكل قوة الرجولة نحوها . وتخيلت في لحظات غرفة النوم , فستان الزفاف , ثم نظرت إلى إصبعها وتخيلت خاتم الزواج كذاك الذي في إصبع صديقتها , تخيلت أنها تشاهد حفلة زفافها على شريط الفيديو . تسافر مع أسام لتمضي شهر العسل في مدن وعواصم مختلفة من العالم , ثم تمضي كل سنة إجازة برفقته في البلدان التي لم تزرها من قبل حتى تطوف العالم .

ومن جديد اعتراها ذاك الإحساس المرعب بضعف المرأة دون رفيق درب , بوهنها وهي تقف وحيدة عارية في ليل شتائي عاصف دون أن تكون يدها بيد رجل , وحتى لو لم تنجب فيكفي أنها تقف لِصق رجل يمكن له أن يتحول إلى طفل في أي لحظة تنظر فيها إليه وتشعر بحاجة إلى أن تكون أما , سوف يكون بمقدورها أن تمارس عليه أمومتها وهي تضمه إلى صدرها . أسام , لقد جاء في هذا الوقت ليثبت لها بأن الحياة تخفي مفاجآت لم تكن بالحسبان , جاء ليغير كل نظرة كانت تنظرها إلى الحياة .

إنها قوة الحب يا راشدة , قوة الحب التي لم يعد يحتملها ، فدفعته ليتصل ويطمئن عليك , وليس بوسعك أن تخفي هذه القوة التي تدفعك نحوه , وإلا ما الذي حدث يا راشدة , من المفترض أنك تجوبين بصديقتك وزوجها شوارع المدينة القديمة , جسدك فقط هو الذي يجوب , لكنك في واقع الأمر تجوبين برفقة أسام في أماكن أخرى .

في صبيحة اليوم التالي استفاق باكراً , أراد أن يستأنف نومه لكن راشدة منعته من أي محاولة للعودة حتى إلى غفوة . عند السابعة والربع هتف لها لأول مرة في هذا الوقت الباكر , كانت نبراتها مختلفة عن أي مرة أخرى ,خطر له أن الإنسان تتغير نبرات صوته بحسب الوقت الذي يكون فيه , عندما يستيقظ من النوم تختلف عنها وهو في ذروة الظهيرة , أو عند المساء , وحتى لوكان في سهرة عامة , تختلف فيما لوكان في سهرة خاصة , أو لو كان في تلك اللحظة في سرير النوم .

ما يهمه أن الصوت حمل إلى ذائقة سمعه نبرات جمالية جديدة لم يكن قد سمعها من قبل في عذوبة هذه الطبقات الصوتية ، ولايدري لماذا خطر له

وهو يحدثها أن نبرة صوت الشخص تمثله , وأن المرء فيما لو أصغى بشكل جيد إلى نبرات هذا الصوت استطاع أن ينظر إلى أعماق هذا الشخص الذي يصغي إليه بنظرات أكثر نفوذا وقوة من نظر العين .

صوت الإنسان يمثل الحالة التي يكون فيها , ومهما سعى لأن يعطي صورة مخالفة أو هاربة ، فإن هذه النبرات لاتستجيب له .

فجأة أدرك بأن راشدة تتحدث بنبراتها الصباحية الهادئة دون أن يستوعب شيئا مما كانت تقول , فقال : مرة أخرى لاأعرف ما الذي دفعني لأطمئن عليك , ما الذي حدث ليلة البارحة ؟

تناهت نبراتها ، وكأنها في صبيحة عيد : ودعتهما في الثانية عشرة ليلا ليرجعا إلى العاصمة , أصرا على العودة رغم إلحاحي الشديد ليناما هنا .

- : هذا كل ماكان بودي معرفته .

قال الجملة واستودعها , لكنه أحس بأن ذلك لم يكن كل ماكان بوده معرفته منها , وعند الساعة الحادية عشرة خرج من البيت متجها نحو عيادتها .

قالت له الممرضة بأنها في جلسة علاجية مع أحد المرضى .

شكرها وخرج من العيادة يمضي في الطرقات متخيلا مدى مقدرة هذه المرأة على الانسجام مع ذاتها ومع الواقع الذي تعيش فيه , هذا الواقع الذي طالما سبب لها الأذى .

تناهى رنين الهاتف في جيبه , فأخرجه ليرى اسمها يتلألأ كحمامة على الشاشة .

راوده إحساس مباغت بفرحة عارمة كأنها تتصل من قارة أخرى .

فتح الخط ليتناهى صوتها العذب إلى سمعه : أين أنت الآن ؟ كان الصوت يحمل أحب النبرات إلى قلبه وأكثرها رقة , إنها نبرات امرأة مقرّبة إلى النفس تقطن في هذه المدينة ، امرأة باتت تلخص نساء العالم بالنسبة إليه .

- بالقرب من سوق الهال .
- ماما عاملة ملوخية بالأرانب , وعازمتك يا سِيْدي عالغداء .

ابتسم وهو يقبل الدعوة ، ويعدها باللقاء بعد نحو ساعة . هاهو سوف يلتقيها مرة أخرى ، سوف يلتقي امرأة عندما يراها لايريد أن يرفع عينيه من محياها .

أغلق السماعة ، واتجه إلى سيارته التي اعتاد أن يوقفها دائما أمام أحد المباني في مدخل السوق . ذهب إلى محل لبيع الحلويات وأخذ علبة / مبرومة / ، وفي الطريق توقف أمام محل لبيع الفواكه ، أخذ بعض الموز ، والمنكا ، والعنب ، ثم سلك الطريق إلى بيتها .
قبل دخول البيت على الرصيف لفت انتباهه كهل في فمه رضّاعة صغيرة يشرب منها الحليب , توقف أمام الرجل الكهل كأنه في حلم ، تأكد بأنه حقا يقف قبالته ، فغدا ينظر إليه كيف يمتص الرضاعة وكأنه طفل رضيع بالفعل , ولفت انتباهه أن الرضاعة كانت معلقة بواسطة خيط رفيع في رقبته إلى جانب (لهّاية) صغيرة , وما أذهله وجعله يلبث واقفا ينظر إليه باستغراب ، أن الرجل يدندن بكلمات عشوائية غير آبه .
بعد لحظات وكأنه في طقس احتفائي مد يده إلى جيبه وأخرج مصاصة صغيرة حمراء اللون , مزق غلافها وغدا يمتصها متلذذاً بها كطفل .

عندئذ ظهر رجل من أحد البيوت المجاورة ، توقف إزاءه وصار يداعبه قائلاً : كيف حالك هذا اليوم / عمو ببو / .
ثم ضحك وهو يلتفت إلى أسام قائلا : اسمه سيرين ، لكنه معروف عندنا في الحارة بـ / عمو ببو / .
أصدر الكهل صوتاً كصوت الأطفال ، ثم تناول اللهاية ، وغدا يمتصها .
ابتسم أسام وهو ينظر إليه ، فأضاف الرجل : بعد قليل سوف يأتي أطفال الحي ، يجتمعون حوله ، وكل واحد يرمي له لهاية ، أو مصاصة ، أو دمية ، أو كيسا من البطاطا المجففة ، أو البسكوت .
يتحلقون حوله فيتحدث إليهم حديث الأطفال للأطفال .
كان الرجل يتحدث دون أن يهتم كثيرا إن كان أسام يصغي إليه بانتباه ، أو لايصغي إليه .
أضاف : قصة سيرين طويلة ، هل أنت غريب عن الحي ؟
اضطر أن يقول : نعم ، أنا ضيف الدكتورة راشدة
قال : أهلا بك ياسيدي ، هذا الرجل عندما كان في الرابعة من عمره ، كانت له أخت في الثانية من عمرها .
ذات صباح سمعت أمه صوت عيار ناري ، فهرعت ، وإذ بسيرين قد أخرج مسدس أبيه من أحد الأدراج ، وغدا يلعب به ، وفي أثناء ذلك يبدو أنه ضغط على الزناد لتنطلق رصاصة إلى أخته التي كانت معه وتفارق الحياة .
منذ ذلك اليوم لبث سيرين يمارس حركات الأطفال سنة بسنة حتى غدا على ما تراه عليه الآن .

هز رأسه وامتدت خطواته , عندئذ انتبه الكهل ورفع رأسه ينظر إليه بطفولة وهو يمتص اللهاية تارة , ويمتص الرضاعة تارة أخرى .

لدى دخوله قال لها وهي تستقبله : وقفتُ قليلا مع شخص غدا يحدثني عن سيرين الذي كان جالسا على الرصيف ، ما قصة هذاالرجل يا حكيمة ؟
غرقت في ضحك عميق وهي لا تتمالك أن تمسك نفسها ، ثم قالت مرحبة به وداعية إياه للجلوس : ياسيدي هذا الرجل منذ ولادته حتى الآن لم يترك الرضاعة يوما واحدا .
عندما كبر كانت أمه تشعربالحرج وهي ترى رضاعة في فمه , ولكن كل المحاولات باءت بالفشل معه , كان يأخذ رضاعات أخوته الصغار ليلا , وعندما يذهب إلى المدرسة يشتري لهاية , أو مصاصة من المحلات المجاورة .

قال أسام : حدثني الرجل عن الحادث الذي وقع له .
قالت : يبدو أنه يرفض أي شعور بأنه غدا كبيراً منذ ذلك اليوم .
يُقال بأنه ذات مرة ذهب مع أبوَيه ليخطبا له فتاة , وهناك بينما كان الجميع ينظر إليه , مد يده إلى جيبه وأخرج لهاية ودسها في فمه ، ويُحكى أن الفتاة هي أول مَن نهضت محمرّ ة الوجنتين نادبة حظها .
بعد نحو ستة شهور ، عاد أهله إلى تلك الفتاة ، فاقتنعت بفكرة الزواج منه لعلها تستطيع أن تجعل منه رجلا سويا .
سمعنا أنها بعد سنة من الزواج تركته ، قائلة بأن لافائدة فيه ، فهو يطلب منها أمورا غريبة مثل أن تلبسه حفاظة كبيرة قبل أن ينام كما لو أنه طفل صغير

لايعرف الذهاب إلى المرحاض ، ويطلب إليها أن تهدهده ، وتروي له قصصا حتى يغفو على نبرات صوتها .
بعد نحو سنتين من بقائها في بيت أهلها ، وإصرارها الشديد على عدم الرجوع إليه فاقدة الأمل في أن يعود سوياً كالرجال ، اضطر السيد سيرين أن يطلقها .
مذ وعيت ، وأنا أرى هذا الرجل في الحي ، إنه من أقدم جوارنا ، أظنه الآن في الخامسة والستين .
أذكر أنني عندما كنت طفلة ، كنت أذهب مع الأطفال ونقذف له بعض الحلوى ونحن نقول له / عمو ببو / وهذا لقب محبب إليه ولايسبب له أي حرج .

الآن يعيش وحيدا في هذا البيت المجاور لنا , لاأحد من أقربائه يوليه أي عناية .
كان لديه محل في السوق لصهر الأواني النحاسية ورثه عن أبيه بعد تنازل أخوته له عن حصصهم . هذا الرجل عمل نحو عشرين سنة في تلك المهنة ، لكن مع قيامه بكل هذه الحركات التي رأيتها ، كان يضع اللهاية في فمه ويعمل كأنه يعلك علكة ، أو يدخن سيجارة حتى أخذ الناس عليه ، وأظن أنه أغلق المحل منذ نحو ثلاث سنوات , وعندما نفد مصروفه ، أجّره لأحد الأشخاص , وهو الآن يعيش من الأجرة الشهرية لذاك المحل .
هذا الرجل ليس مجنوناً ، إنه يقوم بأعمال البيت حتى يعيل نفسه ، ويذهب ليقبض أجر محله كل شهر .
وعندما جلسا أضافت : ذات مرة رأيته يطرق بابي ويقول بأنه يريد أن أعالجه من هذه المشكلة .

كان بإمكاني معالجته لولا أنني اكتشفت حالة عميقة من الحمق لديه عرفت معها بأنني لن أصيب أي نجاح معه حتى لو أضعت معه ثلاث سنوات من العلاج ،
عندئذ تذكرتُ قول المسيح : عالجتُ الأبرص والأكمه فأبرأتهما ، وعالجتُ الأحمق فأعياني .

لذلك كان الشاعر يقول :

لكل داء دواء يُستطب به
إلا الحماقة أعيت من يداويها

ثم قالت : لِم لمْ تنتظر لتخبرني الممرضة بحضورك
قال : كان لديك مريض كما علمت
- : ياسيدي هو ليس مريضاً إن أردت الواقع , إنه طبيب يبدو له بأنه مريض .
يزورني بين فترة وأخرى لأقدم له العلاج النفسي , هو رجل سوي ولاشيء به لكنه مريض وهم .
قال : متوهم بأنه مريض ؟!
ضحكت قائلة : شأنه شأن الذين دخلوا عيادتي منذ أن فتحتها حتى الآن !
قال بدهشة : ماذا تقصدين ياحكيمة ؟

- أقصد أنني تمنيت لو دخل مريض نفسي حقيقي إلى عيادتي , الذي يأتي هنا ، يتوهم بأنه مريض ، وعموماً المرض النفسي يحمل من الوهم أكثر مما يحمل من حقيقة المرض ، كما أن الوسواس يحمل الخيال أكثر مما يحمل من الواقع .

ربما أنا الطبيبة الوحيدة في هذه المدينة التي لايدخل عيادتها مرضى , بل يدخلها غير المرضى على وهم بأنهم مرضى , هذه هي مشكلتي مع مرضاي , ومع هذا الاختصاص الذي يسبب لي إزعاجات مهنية , كن واثقاً أن بعض الذين يأتون إليّ من أجل المعالجة , هم أسوياء , وهم الذين يتمتعون بحالة طبيعية سوية من ناحية انسجامهم مع أنفسهم , إنهم يتمتعون بصحة نفسية جيدة , لكن الحساسية المفرطة بعض الشيء تجعلهم يعتقدون بأنهم مرضى , وهم كذلك على صواب في تلك الحساسية العالية , لاتوجد مشكلة لديهم غير بعض اللبس الذي لايحتاج إلى علاج قدر حاجته إلى شيء من حديث النفس للنفس في ركن هادئ مع شيء من أنغام هادئة .

المرضى الذين يحتاجون حقاً إلى معالجات نفسية لايعترفون بأنهم مرضى وبناء على هذا اللا اعتراف قد يستهزئون بعلم اسمه طبابة نفسية , أعرف أشخاصاً يبرقون كالنجوم , بيد أن أكثر ما يحتاجون إليه هو العلاج النفسي .

أرى المرض في نظراتهم , في حركاتهم , في تصرفاتهم واتخاذهم لقرارات تعكس سلباً .

قد تسأل : كيف أعرف هذا ؟ أقول لك بأنني متتبعة بشكل جيد فقط من أجل أن أتأكد من خبرتي وإمكاناتي في العمل الذي أقوم به .

أحياناً ينتابني إحساس بأننا نعيش في مصحة كبيرة .

لكن الأمر لايخلو من مواجهتي لبعض المرضى الثقلاء كهذا الذي نتحدث عنه ، أحياناً أشعر بضرورة عدم استقباله لأنه يكرر السؤال عشر مرات ، فأشعر بأنني أمام إنسان غاية في عدم الاستيعاب .

عندئذ ظهرت أمها تدعوهما للذهاب إلى مائدة الغداء .